جمال الدين العرّاب

رواية

مكتبة ياسمين

الطبعة 3

سر الرحلة 990

عصير الكتب

t.me/yasmeenbook مكتبة ياسمين

سر الرحلة 990

كان مقدرًا لها أن تكون ليلة هادئة، من نقطة الانطلاق إلى نقطة الوصول رحلة عادية ومملة. لم يخطر على بال أحد أن تتحول إلى كابوس مرعب سيطارد الجميع سنواتٍ، حينما اختفت عن كل رادار، لم ترصدها عينٌ في كل الكون. في لحظة تلاعب القدر بكل الأطراف، أظلمت السماء ليكسوها ليلٌ فاحم، وانتفضت أمواج محيط غاضب، اشتعلت كشهاب ساقط، يخترق الصمت أسرع من خطف البرق، أعتى من صوت الرعد. حملت معها كل الأسرار وأخذت لغز الموت وسكنت بين صخور القاع.

تصميم الغلاف: محمود هشام

9 789779 923307

عصير الكتب

www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb

سر الرحلة 990

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

● الطبعة الأولى: يناير 2024م

● رقم الإيداع: 2023/25358م

● الترقيم الدولي: 978-977-992-330-7

● العنوان: سر الرحلة 990

● تدقيق لغوي: نهال جمال

● تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

إهداء

هذه الرواية مُهداة للذي «توكَّل على الله»
عندما خذله العالم وهو يُجابه الجاذبية على ارتفاع
عشرات آلاف الأميال فوق سطح المحيط الأطلسي
في تلك الليلة الليلاء، ولكل رجال قمرة القيادة
الشجعان، وإلى قرائي الأعزاء في «فلسفة المافيا»
و«الرجال المحترمون»، وإلى العائلة والأصدقاء.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

مدخل

(15 مارس 2002/ القاهرة)

سقطت عربة نقل المرضى من سيارة الإسعاف بعدما سحبها الممرض بسرعة ونزل باقي المسعفين والممرضين معها، تجمَّع الناس حول مدخل مصلحة الطوارئ في المشفى فقد كان واضحًا من وجوه طاقم التمريض أن الحالة التي وصلت للتو خطيرة وتستدعي تدخلًا طبيًّا عاجلًا، كانت الأعين تنظر إليه كأنه مركز العالم، كأنه حفرة عميقة يحاولون جميعًا معرفة ما في قعرها دون أن تكون لهم أدنى رغبة في أن يسقطوا داخلها، ورغم أن الضجيج كان عارمًا من حوله فإنه لم يستطع تمييز ما يقوله الناس فقد كانت أصواتهم تصل إليه متأخرة غير متناسقة مع حركات شفاههم كأنه يشاهد فيديو سيئ الجودة والتنسيق بين الصوت والصورة، أو كأنه ينظر إلى هذا العالم من تحت بحيرة ماء، ضغطت إحدى الممرضات على الجانب الأيمن

من جبهته حتى شعر أنها تكاد تسحق جمجمته وسمع صوتها يصل متأخرًا من بين بقية الأصوات الأخرى: «أسرعوا.. الدكتور ينزف.. إنه ينزف.. إنه ينزف..».

تماوجت الصورة بين عينيه كراية تداعبها الرياح، حاول جاهدًا أن يتذكر ماذا حدث له لكنه لم يكن قادرًا على التركيز في أي شيء يخص ماضيه، في الواقع لم يكن قادرًا على التركيز في أي شيء محدد، لقد وُلد للتو، أو هكذا كان يشعر... لا شيء قبل هذه اللحظة إلا فراغ وعدم وآلام عظيمة في الفص الأيمن من رأسه كأن وتدًا خشبيًّا عظيمًا غُرز فيه، مع صوت الممرضة التي تستمر في الإمساك بتلك البقعة بالذات، تلك البقعة التي شعر بها كبركة طازجة من الألم واللزوجة في الشق الأيمن من جبهته، بدأ الصخب الذي من حوله يقل تدريجيًّا، والمشهد يزداد زرقة بين عينيه وهو يتذكر مقطعًا من أغنية قديمة علق في ذهنه فجأة كإطار صورة بقي معلَّقًا في جدار بناية هزَّها زلزال مدمِّر، على فراقك محتار، قلبي شاعل نار أنا ناطر ليل نهار يا أم عيون الكذَّابي.

لا يتذكر تلك الأغنية جيدًا، حاول دندنة لحنها لكي يتذكر المقطع الأول منها فلم يستطع تحريك لسانه قيد أنمله، وشعر ببرودة مؤذية تسري في أنحاء جسمه كافة، وتراقصت أمعاؤه كطفل صغير يلعب في أرجوحة عندما ازداد الممرضون الذين يجرُّون العربة سرعةً في الرواق الطويل المؤدي إلى غرفة العمليات، نظر إلى نوافذ المشفى، كانت تنسحب تباعًا بين عينيه كشريط سينمائي لفيلم قديم، «إنه

يموت.. إننا نفقده.. بسرعة.. بسرعة» تناهت أصوات العالم الخارجي إلى مسامعه من جديد ودخلت به العربة إلى غرفة بجدران زرقاء وتمكن من التقاط رائحة يعرفها عز المعرفة، رائحة الكحول المعقم ممزوجة برائحة الماء الأوكسيجيني الباردة.

وخزته إحدى الممرضات في شراييه بحقنة ما بعدما نزعت ساعته اليدوية التي كانت عقاربها متوقفة وألقت بها على الطاولة، وما هي إلا لحظات حتى بدأ باستعادة وعيه تدريجيًّا ولكن على نحو مثير للشفقة، إذ لا يزال غير قادر على تحريك أطرافه ولسانه الذي كان كثعبان ميت داخل فمه لا يقوى على تحريكه إلا بعد جهد جهيد، وراح جسمه يتخدر بالكامل بينما يكافح وعيه ليظل على قيد الإدراك، ولم يفهم الشعور العميق بالحزن الذي انتابه فجأة، كآبة مريرة أغرقت وجدانه للحظات حتى شعر برغبة كبيرة في الانفجار بكاءً لكنه لا يستطيع، ولا يدري لماذا لا يستطيع، يخنقه البكاء خنقًا وصدره يكاد ينضغط منكمشًا عليه من شدة القهر وعيناه ثابتتان في الطاقم الطبي الذي التف حول سريره في غرفة العمليات.

استمر في الشعور بالاختناق المرير وأغمض عينيه دون أن تنزل الدموع منهما، ووقف وسط بقعة ضوء خافتة في الظلام الدامس ينظر يمينًا وشمالًا شاعرًا بالضياع والحيرة، أخذت رقعة الضوء التي تحيط به في التقلص تدريجيًّا والظلام يمتد نحوه جالبًا معه مزيدًا من الصقيع والماء البارد المالح، الأسى يعصر قلبه كليمونة يابسة في كفٍّ

عملاق عديم الرحمة وليس في ذاكرته سوى ذلك اللحن القديم يؤنس وحشته... أشرف على تذكر بداية مقطع الأغنية.

طوِّل غيابك يا... طوِّل عذابي...

تقلصت رقعة الضوء الذي ازداد خفوتًا، واخترقه الظلام من كل جانب وأغرقهُ، وفقد الشعور بعدها بكلِّ شيء...

جميل

(قبل ثلاث سنوات/ القاهرة)

كان أكتوبر من العام 1999 يلفظ أنفاسه الأخيرة في وقت متأخر من الليلة الحادية والثلاثين بنسمته التي تحاول أن تكون رحيمة بعد صيف ساخن حارٍّ مليء بالأيَّام الجافَّة، شباك النافذة مفتوح على مصراعيه وستارتها البيضاء تتماوج كراقصة شرقية على أنغام الهواء المنعش الذي يداعبها برفق أحيانًا ويلكمها بقوة أحيانًا أخرى، تكوَّر جميل في فراشه وهو يغط في نومه العميق حين تناهى إلى مسامعه ضجيج خافت كصوت قطار قادم من بعيد يزداد صوته إزعاجًا شيئًا فشيئًا كلما اقترب، بصعوبة بالغة فتح عينيه، ولوهلة حاول تذكُّر المرة الأخيرة التي نام فيها ولكنه لم يستطع، الصوت الآن صار أكثر وضوحًا، إنه هاتفه الثابت الذي كان يرن بعنف ضاربًا خشب الطاولة التي كان عليها، نظر إلى ساعته الجدارية كأنه يقيس درجة خطورة

المكالمة بمدى تأخر الوقت، وهكذا قام جميل من مكانه مسرعًا نحو الهاتف مجهِّزًا نفسه لسماع خبر كارثي بما أنها كانت الثانية والنصف بعد منتصف الليل.

- همم ألو نعم؟

- جميل؟ تتتعال فورًا فنحن في حاجة إليك هنا، ثمة طائرة تتتابعة لشركة مصر للطيران قد اختفت من شاشة الرادار منذ عشرين دقيقة...

قاطع جميل محدِّثته التي استرسلت في الكلام بصوتها الأنثوي المضطرب: «ليلى؟ مهلًا ليلى، أي طائرة تقصدين؟».

مثل الأبله سألها وهو يحاول تمييز ما إن كان في حلم أم في علم، فأجابت مذعورة: «طائرة ببوينغ 767، الرحلة 990 من لوس أنجلوس إلى القاهرة اختفت من شاشات الرادار حسب ما وردنا قبل قليل من مطار جون إف كيندي بنيويورك».

قال وهو يرتدي ملابسه على عجل مسندًا سماعة الهاتف على كتفه: «أوصليني بالمدير فورًا، ولا تدعوا الخبر يصل إلى الصحافة لكيلا يعيقوا عملنا».

فردَّت عليه: «أسرِع أرجوك فالوضع خطير جدًّا أرجوك...».

أغلق سماعة الهاتف وأنهى إغلاق أزرار قميصه وبسرعة عابرة حمل مفاتيح السيارة وقلمًا أحمر مع خارطة للرحلات الجوية كانت مُلقاة على مكتبه المبعثر وخرج على مضض.

يعمل جميل موظفًا في ميناء القاهرة الجويِّ، وبالضبط في مكتب تحقيقات الكوارث الجوِّية، وهو المكتب الذي عُيِّن فيه خلفًا لأستاذه السيد يسري حامد الذي تقاعد مؤخرًا بعدما أشرف على تكوين جميل ومعاونته ليلى، وكان الأستاذ يسري قد أخبره ذات يوم أن مكتب التحقيقات هذا هو المكتب الوحيد الذي تتمنى مصر كلها ألا يباشر مهامه لأنه لا يفعل ذلك إلا وقت المصائب والمحن، وقد مرَّ منها الكثير على الأستاذ يسري الذي كان عبقريًّا شارك في الكثير من التحقيقات واستعانت به شركات طيران عربية وأجنبية في الكثير من المرات لخبرته الواسعة في هذا المجال قبل أن يتقاعد مؤخرًا.. تساءل جميل إن كان بالإمكان الاستعانة به في هذه الليلة الليلاء وهو يركب سيَّارته منطلقًا كالعاصفة بعدما أدار محركها متمنيًا ألا يكون هذا اليوم هو يوم عمل ذلك المكتب!

كان الظلام دامسًا في الخارج، ما الذي يمكن أن تتوقعه من الثالثة إلا ربع بعد منتصف الليل على أية حال، ولكن أضواء الطريق لم تكن مُنارة وهو أمر غريب جدًّا، كأنها ليست القاهرة التي يعرفها جميل، فليس من العادة أن تغيب الإنارة العمومية عن الشوارع الكبرى في عاصمة أم الدنيا، لقد كانت المدينة غارقة تمامًا في العتمة كأنها أرملة

توشَّحت السواد حدادًا على زوجها، راح يقود وسط تلك الظلمة الحالكة التي بالكاد تستطيع أضواء سيارته إضاءة الطريق فيها، وأشعل المصباح العلوي للسقف بينما يقود بتهوُّر وفتح الخريطة التي جلبها معه، وضع علامة على الخريطة عند موقع لوس أنجلوس، ثم رسم خطًّا متقطعًا انطلاقًا من تلكم العلامة نحو... *القاهرة؟ مستحيل، يجب أن تتوقف الطائرة في مكان ما من الولايات المتحدة الأمريكية قبل أن تكمل رحلتها نحو القاهرة، هذا صحيح، نيويورك... الرحلة 990 تمر من لوس أنجلوس إلى نيويورك ومن نيويورك إلى القاهرة....* حاول تشغيل الراديو على السيارة لكي يرى ما إن كانت هنالك أي أخبار في الإذاعة لكن البث كان مقطوعًا فأطفأه مرة أخرى قبل أن تزعجه خشخشة صوته أكثر مما هو منزعج.

بينما كان غارقًا في أفكاره وتخميناته سمع صوت سيارة قادمة من الخلف، ورغم أنه كان يقود سيارته بسرعة كبيرة نحو المطار فإن هذه السيارة كانت تسير في سرعة ثابتة وتجاوزته بحركتها المتباطئة كأنها قارب شراعي قديم تقوده الأشباح، سيارة فاخرة جدًّا من نوع رولز رويس سوداء اللون يكاد سوادها يضيء من شدة لمعانه كشمعة داخل زجاجة تطفو على البحر في ليلة كثيفة الغيوم.

تعجَّب جميل من رؤية هكذا سيارة فاخرة جميلة في هذا الوقت المتأخر من الليل، والأكثر عجبًا أنها في قمة النظافة واللمعان حتى تكاد تقسم على نفسك إنك أول مَن رآها بعد تصنيعها مباشرة..

استمرت السيارة في الابتعاد عنه شيئًا فشيئًا ورغم أنه يقود بأقصى سرعته لم يستطع قط اللحاق بها وهي تمشي بسرعتها البطيئة تلك، فكان آخر ما رآه منها وهي تبتعد هو رقم لوحتها • SU – GAP 3110217 • ورآها تسلك طريقًا مهجورًا عليه لافتة غير مفهومة بها حرف لاتيني لم يتبيَّنه جيدًا وأمامه الرقم 22.

استدار نحو الخلف وهو يتعقَّبها بعينيه متناسيًا النظر نحو الأمام بينما يقود بسرعة كبيرة وهو يرى تلك السيارة الغريبة تتوارى عن ناظريه وسط الغياهب في ذلك الطريق الفرعي المهجور الذي يراه لأول مرة في طرقات القاهرة، وما إن التفت بنظره نحو الأمام حتى شعر بالفزع فجأة وضغطَ فرامل السيارة بكل قوته أمام الصورة التي برقت بين عينيه، أمعن النظر جيدًا، ثم نزل مذعورًا لاهثًا ليتأكد مما رآه، في منتصف الطريق أمام سيارته وقفت فتاة صغيرة تبدو في حدود العاشرة من العمر. *يا الله كان ذلك وشيكًا.* قال وهو يعد الملليمترات القليلة التي تفصل الفتاة عن مقدمة سيارته التي كادت أن تصدمها لولا قوة الفرامل، كانت ترتدي ثوبًا ناصع البياض لم يرَ جميل في حياته ثوبًا في مثل نعومته، *لا شك أنه من الحرير الفاخر.* لطيفة رغم ملامح الصدمة في وجهها، وشعرها أحمر كستنائيٌّ يبلغ خصرها، كانت عيناها حزينتين ثاقبتَين تنظران إلى عينَي جميل مباشرة، مبتلة تمامًا من رأسها لأخمص قدميها تنبعث منها رائحة الملح والماء كأنها سمكة طازجة تقطر ماء وترتجف من البرد... *أيُعقل أنه المطر؟ أين*

المطر في ليلة صافية كهاته؟ ما الذي جعلها هكذا وما الذي تفعله هنا وحيدة في هذا الوقت المتأخر من الليل؟ أهو حادث سير؟ التفت يمينًا وشمالًا ولم يرَ أحدًا.

- من... وماذا؟ ماذا تفعلين هنا؟

لم تجب، اكتفت بالنظر إليه بحزن فأشفق عليها، فبعض الأعين في هذه الحياة تجعلك تشفق عليها دون أن تعرف السبب. شعر بصداع حادٍّ بينما يتأملها وبدت على نظراتها آثار صدمة مروعة كأنها هربت من حيوان مفترس قبيل لحظات قليلة. استمر في هزها من كتفها ومحاولة مخاطبتها دون فائدة، توجه إلى صندوق سيارته وأخرج منه بطانية صوفية كانت هناك. *ما هذه الليلة بحق خالق السماوات والأرض؟ الطائرة ثم السيارة الغريبة والآن هذه الفتاة؟* لا وقت لديه للتخمينات الآن فهو في عجلة من أمره، لذا فتح البطانية وعاد إلى مقدمة السيارة لكي يغطي الفتاة فشهق رعبًا، لا أثر للفتاة... *يا إلهي الرحيم هذا ما كان ينقص ليلتي.. الأشباح.*

- عزيزتي؟ أين أنتِ؟ أين ذهبتِ؟

لا شيء إلا صدى صوته يرتد إليه. نظر إلى مكان وقوفها وكانت الأرضية جافة تمامًا على نحو عاديٍّ ولا أثر للمياه التي كانت تقطر من الفتاة قبل قليل، ركب سيارته في حيرة من أمره، وانطلق بسرعة نحو المطار مجددًا. *كان الطريق خاليًا تمامًا حتى من الكلاب المتشردة*

فما الذي كانت تفعله تلك الفتاة هناك وأين اختفت؟ استمر جميل في قيادة سيارته وحاول نسيان ما رآه، ولم ينتبه أن المكان الذي توقف عنده قبل لحظات، المكان الذي ظهرت فيه الفتاة والذي يتفرع منه الطريق الذي اختفت في غياهبه السيارة كان طريقًا فرعيًّا يقود إلى حيٍّ «السيدة زينب» حيث تقع مؤسسة «زينهم» لتشريح الجثث.

بينما يقود باتجاه المطار نظر إلى الخريطة مجددًا وانتبه لوجود علامة غريبة بالحبر الأحمر كأنها مرسومة بالدم، علامة تتألف من الحرف اللاتيني X محاطًا بدائرة وواضح أنها يدوية الرسم وليست مطبوعة على الخريطة، بل وواضح أيضًا أنها مرسومة قبل لحظات فقط، إنه لا يتذكر أنه رأى هذه العلامة في الخريطة من قبل ومن غير الممكن أن يكون قد رسمها من غير قصد في أثناء إمساكه بالقلم، فالعلامة الوحيدة التي وضعها على الخريطة كانت خطين تحت اسم لوس أنجلوس قبل قليل، أما هذه العلامة، فتقع على المسار الذي رسمه للطائرة من نيويورك إلى القاهرة على المحيط الأطلسي أبعد بقليل عن سواحل نيويورك، يبدو أن هذه الليلة ستكون طويلة عليه ولن تمر على خير، فالأشياء الغريبة التي رآها في هذا الطريق كفيلة بفتح تحقيق في حد ذاتها فضلًا عمَّا سيجده بانتظاره في المطار.

أين تكون قد اختفت هذه الطائرة؟ تمنَّى جميل ألا تكون الأمور بذلك السوء وإن تعلم من معلمه في سلك التحقيقات في الكوارث الجوية السيد يسري حامد أن وظيفة المحقق هي وضع الفرضيات

السيئة دائمًا.. *الرحلة من لوس أنجلوس إلى القاهرة تمر بنيويورك، ومن مطار نيويورك تقلع نحو القاهرة، لو كان الاختفاء قد حدث في أثناء الرحلة من لوس أنجلوس إلى نيويورك فالأمر ليس بتلك الخطورة وما زال هنالك أمل في أن تكون على ما يرام لأننا كنا سنعلم لو أصاب الطائرة مكروه وسقطت في إحدى المناطق المأهولة، لكن إن كانت قد اختفت بعد إقلاعها من نيويورك، أي فوق المحيط الأطلسي، فتلك* مصيبة حقيقية. وقعت عيناه من جديد على تلك العلامة الغامضة في الخريطة فوق المحيط الأطلسي، وتمنى ألا يكون ما خطر في باله صحيحًا.. *ما الذي من الممكن أن يجعل طائرة مدنية من نوع بوينغ تختفي فجأة من شاشات الرادار عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل فوق المحيط الأطلسي؟* خطر له هذا السؤال، وتمتم بسأم: *ليتني لا أعرف الجواب...*

أحمد

(قبل أربع ساعات/ نيويورك)

كانت الباحة الرئيسية لمطار جون إف كيندي مزدحمة بمختلف الأعراق والأعمار من الناس، قابلته لافتة رقمية عظيمة مليئة بالرموز والأرقام وأسماء الرحلات التي لم يتعب نفسه في قراءتها كلها، فهو يعرف جيدًا موعد طائرته وهذا ما يهمه، كانت ساعة يده معطَّلة ولذلك نظر إلى الساعة العملاقة في قلب اللوح الإلكتروني ووجدها تشير إلى العاشرة والنصف مساءً، ورغم أن هذا التوقيت يعتبَر متأخرًا بعض الشيء وتقل فيه الملاحة الجوية، فإن الحركة في المطار كانت نشطة للغاية، فالأضواء البهيجة واللافتات الإشهارية العملاقة والأضواء البرَّاقة للمحلات التجارية والمطاعم جعلت باحة المطار أشبه بمدينة لا تنام ولو لم يكن أحمد في الخارج قبل نصف ساعة لراهن أن الشمس تنتصف السماء، فالكل يسير بحيوية ونشاط وإن لاحظ ملامح التعب

في بعض الوجوه، والتقط أنفه في الجو مزيجًا ناعمًا من العطور النسائية من مختلف الأنواع، كريستيان ديور، باكو رابان، إمبوريو أرماني وغيرها من الماركات الشهيرة، ولا عجب في ذلك فقد كانت الحسناوات يذرعن المكان جيئة وذهابًا.

كان قد استغرق قرابة الساعة من الزمن لكي يصل إلى هنا حيث ودَّع شوارع نيويورك البهيجة وطرقاتها الفسيحة عندما استقل سيارة أجرة في حدود التاسعة وعشرين دقيقة من أمام فندق السانت ريجيس الذي كان ينزل فيه، وآثر أن يتناول وجبة العشاء في المطار حيث سئم من مطعم الفندق الذي من النادر أن يجد فيه وجبات لا يدخل في تركيبتها نبيذٌ أو لحم خنزير. وبعد عناء طويل مع سائق التاكسي الذي كان يثرثر بالإنجليزية الأمريكية التي يجد أحمد صعوبة كبيرة في فهمها، التي في الواقع يجد بعض الأمريكيين أنفسهم صعوبة كبيرة في فهمها، ها هو أخيرًا هنا في المطار وسط همهمات المسافرين وصخب أصواتهم وضجيج حركتهم.. شاب آسيوي يريد أن يقتطع تذكرة إلى بلاده، وآخر أسمر البشرة يتجه إلى مصلحة حفظ الأمتعة، مع صوت المضيفة التي تنادي المسافرين بين الفينة والأخرى، جال أحمد ببصره في كل الأماكن التي استطاع بصره الوصول إليها حتى عثر على كابينة الهاتف أخيرًا.. هذه هي. هتف في قرارة نفسه ثم توجه إليها مهرولًا لكي لا يسبقه أحد، وضع بعض الفكة في الحصالة وراح يضرب رقم هاتف كان يحفظه جيدًا، كيف لا وهو رقم هاتف

بيته في القاهرة حيث يقيم برفقة أمه وخالته وابنتها، ثم أسند ظهره إلى الكابينة وانتظر هنيهة، تأكد من أن الباب مغلق بإحكام لكي لا تتسلل عاصفة الضوضاء التي تهب في أرجاء المطارِ إلى الداخل، كانت الكابينة ضيقة للغاية أشبه بتابوت واقف فيه هاتف أرضي. من *المستبعَد أن ترد*. خاطب أحمد نفسه بعدما نظر إلى الساعة مجددًا من زجاج الكابينة، إذا كانت حساباته صحيحة فالساعة الآن في حدود الثالثة والنصف بعد منتصف الليل بتوقيت القاهرة وخطيبته لن تكون مستيقظة في هذا التوقيت المتأخر مهما كان السبب، وهكذا ترك رسالة صوتية لها بعد سماع الإشارة الصوتية: «ألو عزيزتي، وصلت للتو إلى المطار، سأحاول أخذ استراحة قليلة بعد تناول طعام العشاء، فلا يزال الوقت مبكرًا على موعد الطائرة التي لم تقلع بعد من لوس أنجلوس على ما يبدو، سأوافيك بمزيد من التفاصيل لاحقًا. أراكِ بخير».

ووضع السماعة بعد سماع إشارة وصول رسالته، استمر في التحديق نحو الهاتف للحظات متأسفًا لأنه لم يسمع صوتها كما كان يمنِّي النفس، وتبسم لما حاول تخيل ما كانت ستقوله له لو ردت عليه.. *ماذا ستقول؟ ستطلب مني أن أعتني بنفسي وأن أحذر في اختيار الطعام الذي سأتناوله ولن تنسى أن توصيني بلهجتها المتأتئة أن أغض البصر*. ضحك متذكرًا شجاراتهما المتكررة بسبب غيرتها المفرطة عليه، إنها ابنة خالته في الواقع، وهي وحيدة أمها حيث توفي والدها لما كانت في الخامسة من العمر بسبب حادث مرور سبب لها

صدمة نفسية زالت مع مرور الزمن لكنها تركت آثارها على لسانها... ولذلك فهي عزيزة جدًّا عليه وعلى عائلته وهو يشعر بعاطفة جياشة مختلطة بين الحب والشفقة عليها منذ كانت صغيرة، ورغم علَّتها البسيطة تلك فإنها تزداد جمالًا ودلالًا يومًا بعد يوم حتى إنه يشعر بأنه محظوظ جدًّا بها. تذكَّر منظرها يوم عزاء أبيها وهي تتكلم واثقة وتقول للناس إن والدها مسافر سيعود بعد أيام، قطَّعت قلوب المعزِّين في ذلك اليوم الذي لا يزال أحمد يتذكره جيدًا رغم أنه كان في الثامنة من العمر وقتها، وقد دخلت خالته «إنجي» (والدتها) في صراعات عاتية مع أهل زوجها الراحل، وبخاصة مع أخته المقيمة في أمريكا «نورة»، وهي المرأة التي كانت تريد أن تصحب معها بنت أخيها إلى الولايات المتحدة لكي تضمن لها مستقبلًا واعدًا هناك، لكن عائلة أمها في مصر رفضت ذلك جملة وتفصيلًا فاستقر الحال بالصغيرة المدللة عند أمها وخالتها نرجس والدة أحمد، ولم تكن هذه الصغيرة على ما يبدو في حاجة إلى الذهاب إلى الولايات المتحدة الأمريكية من أجل ضمان مستقبل واعد، فقد كبرت وأصبحت شابة يافعة طموحة ومثقفة، وبارعة الجمال أيضًا حتى خطفت قلب أحمد الذي صارح أمه برغبته في خطبتها منذ سنتين، ولم تجد الأم أي صعوبة تذكَر في إقناع أختها بالموضوع، وبخاصة أن الشابَّين اليافعين كانا واقعين في حب بعضهما رغم شجاراتهما المتكررة.

تتابعت كل تلك الذكريات على خاطره في لحظة سهو قضاها يحدق إلى سماعة الهاتف...

- هلَّا سمحت لنا بإجراء مكالمة هاتفية واتخذت لنفسك مكانًا آخر للتَّأمل فيه؟

سمع أحمد تلك الجملة بصوت رجل منزعج مرفقة بدقات مسترسلة على باب الكابينة، فخرج من هناك وعلى وجهه ابتسامة اعتذار ثم سار وسط زحمة المسافرين نحو مطعم قريب، تصل درجة الحرارة في نيويورك إلى عشر درجات مئوية تقريبًا في هذا التوقيت من السنة كما تكثر الأعاصير والعواصف، لكن الجو هادئ ولطيف في الخارج ولا خوف على رحلته إلى مصر بإذن الله، مصر.. كم يشتاق الإنسان إلى بلاده حين يخرج منها مسافرًا لبلاد أخرى! إن الدقيقة تصبح ساعة والساعة عام وكل يوم يمضي بعيدًا عن أهله ورائحة بلده يشعر به يسقط من وجدانه كزهرة سقطت ذابلة بعدما هجرتها أيام الربيع.

اتخذ مقعده في ركن هادئ من المطعم وطلب لنفسه طبقًا مكوَّنًا من دجاج مشويٍّ متبَّل ببعض القرنفل والزنجبيل وأصرَّ على النادل أن يتأكد له ألا يُضاف أي نبيذ على صلصة الدجاج وأن تتألف من الطماطم والدسم وبعض رقائق البطاطا المقلية فقط، وطلب مع ذلك كله زجاجة كولا باردة تساعده على هضم الوجبة الدسمة التي هو بصدد تناولها. وبعد طعام العشاء نظر إلى الساعة في ردهة المطار مرة أخرى وكانت في حدود الحادية عشرة ليلًا، *أتكون رسالتي*

الصوتية قد وصلت إليها؟ طلب لنفسه كوب كابتشينو ساخنًا وتوجه به نحو زاوية دافئة بها نافذة تطل على بهو المطار، كان التوقيت لا يزال مبكرًا على موعد الرحلة، ولذلك آثر أن يستغل هذه السويعة في التمتع بسطور روايته المفضلة «العطر والنار» التي كان يحملها في حقيبته اليدوية مع جواز السفر وباقي الوثائق التي تأكد منها عشر مرات، ولا يمَل من التأكد من أنها بحوزته في كل مرة، فلا يرغب في تضييع هويته في نيويورك على كل حال، وهكذا ألقى نظرة سريعة على تذكرته التي كانت في حقيبته اليدوية بدورها.

وكان مكتوب عليها معلوماته الشخصية ومعلومات تخص الرحلة، التوقيت الواحدة بعد منتصف الليل، الوجهة مطار القاهرة الدولي، اسم شركة الطيران مصر للطيران ورقم الرحلة.. 990...

جميل

(ميناء القاهرة الجوّي/ 02:45)

هذا ليس وقت الشقيقة أبدًا أو أيًّا كان سبب هذا الألم اللعين. خاطب جميل نفسه وهو يشعر أن أحدهم يريد تفجير جمجمته عبر الضغط عليها بلوح معدني من شدة الصداع الذي كان يعانيه، كان قد وصل للتو إلى ميناء القاهرة الجوي وترك سيارته في مكان ما أمام المدخل ودخل مهرولًا نحو مكتبه، تعجَّب من غياب شرطة المطار على الباب ولا أحد من المسافرين في الردهة ولا حتى في قاعة الانتظار، كأن لا أحد يرغب في السفر من أو إلى مصر في تلك الليلة، لا وقت لديه للتعجب على كل حال ولذلك سار بخطوات واسعة حتى وصل إلى قاعة الانتظار الرئيسية، نظر إلى الخارج عبر زجاج النافذة وكانت الأجواء في فناء الطائرات هادئة كمقبرة، غير أنه انتبه لوجود فتاة تستند على ركن حجري في الخارج، اقترب من الزجاج لكي يتحقق من أمرها ولم

يتبين له جيدًا من تكون بسبب العتمة، كانت ترتدي طقمًا رسميًّا بعض الشيء فاستنتج جميل أنها إحدى موظَّفات المطار. ناداها وطرق بيده على الزجاج كي تسمعه ولكن دون جدوى، لقد كانت تقف وحيدة في الظلام كالشبح تراقب السماء بلا حراك، فخرج إليها عبر الباب المؤدي لفناء الطائرات وكان غريبًا عليه أن يجده مفتوحًا، إذ لا يفتح هذا الباب عادة إلا لوجود مسافرين متوجهين نحو طائرتهم.

- أنت؟ يا آنسة؟ أين البقية؟

قالها وهو يقترب منها، وأوجس منها خيفة حين استمرت في التحديق إلى السماء دون أن ترد عليه أو تنظر إليه، *لعلها لم تسمعني*، اقترب منها أكثر ووضع يده على كتفها فاستدارت نحوه على الفور فأرعبته.

- جميل؟ أخيرًا جئت؟ إنهم في انتتتظارك هناك في الأعلى.

قالت تلك الجملة مصحوبة ببخار كثيف ينبعث من فمها حتى اعتقد جميل أنها كانت تدخِّن سيجارة ما.

تنهد متنفسًا الصعداء بعدما عرف أن هذه الفتاة ليست سوى مساعدته ليلى التي تعمل معه في مكتب تحقيقات الكوارث الجوية التابع للمطار والتي اتصلت به قبل قليل، كانت جميلة جدًّا عجز الحزن في عينيها عن إخفاء جمالها، وجعلها طقمها الكلاسيكي تبدو كسيدة ناضجة على صغر سنها.

سألها جميل متعجبًا: «ما الذي تفعلينه وحيدة هنا؟ لمَ لست معهم؟».

ردت عليه وهي تعدِّل ربطة شعرها الحمراء وانبعث البخار من بين شفتيها مجددًا حين قالت: «إإننهم في انتتظارك أنت يا جميل..».

- أين باقي الموظفين؟ أين رجال الشرطة؟

- أظن أن المدير قققد صرفهم نحو المدخل الخارجي للمطار للكي يمنعوا عائلات المسافرين ممن من الدخول حتتى حتى لا يعيقوا عملنا.

لم يشعر جميل أن الجو بارد لتلك الدرجة حتى ينبعث بخار الماء من فمها بهذه الكثافة كلما تحدثت أو تنفست وكأن السماء تثلج.. نظر حوله مرة أخرى، كانت الطائرات المدنية المركونة في ساحة المطار ترقد في حزن كأنها تعرف ما لا يعرفه البشر، وأقسم جميل إنه لو صعد لإحدى تلك الطائرات وأقلع بها فلن يعترض طريقه أو يكترث لأمره أحد من شدة خلو المكان.

كان الجو كمعاونته ليلى، جميلًا حزينًا لطيفًا كئيبًا غامضًا كعينيها الساحرتين، وكان هذا الخليط المتجانس بين الجمال والحزن يسيطر على تفكير جميل تمامًا كشعوره الفظيع بالصداع.

- حسنًا دعينا نتوجه نحو المكتب، لكن أسدي لي معروفًا واجلبي لي أي دواء يخفف من صداعي، أشعر أن الجهة اليمنى من رأسي تتحطم.

بينما أومأت برأسها إيجابًا ثم غادرت المكان، صعد هو السلالم المؤدية للطابق العلوي حيث يقع مكتبه قبالة برج المراقبة، ودخل فوجد المكان خافت الإضاءة كئيبًا أشبه بغرفة عمليات جراحية صاحبها ميؤوس من نجاته في هذا المطار الذي بدا لجميل كمستشفى مهجور.

- أفندم...

سمع هذه الكلمة مباشرة بعد دخوله، رفع بصره ليجد صاحبها مدير المطار السيد علي منصور، رجل ستينيٌّ سمينٌ جاحظ العينين أجعد الشعر فاتح البشرة تكاد بشرته تضيء المكان وفي سحنته احمرار فاتح يجعله يبدو سريع الانفعال رغم لطافة بسمته.

- آسف على التأخر سيدي لقد وصلت إلى المكان بأسرع ما يمكنني...

قاطعه بعدما أمسكه من ذراعه واقترب منه قائلًا بلكنة أقرب منها للهمس من الكلام المسموع وهو يرفع حاجبًا ويخفض آخر كلما وصل إلى جزئية مهمة من الكلام: «الوضع غاية في الخطورة يا جميل (ورفع حاجبه)، منذ قرابة الساعة إلا عشر دقائق وصلت إلينا مكالمة من

مطار نيويورك، يقولون إن طائرتنا اختفت من شاشات راداراتهم بعد إقلاعها من مطار نيويورك (ورفع حاجبيه على نحو منذر بالخطر)».

جاءت تلك الكلمات من المدير السمين صاحب اللغد العظيم الذي ينطق الحروف من مخارجها بصعوبة كأن فمه مليء بالزبدة. وشعر جميل بقلبه على وشك السقوط على الأرض كحبة بيض نيئة.. *إنها نيويورك إذن، الطائرة اختفت من شاشات الرادار بعد خروجها من نيويورك، حدثت أسوأ مخاوفي.*

خاطب جميل نفسه وهو يقترب من طاولة موضوعة في منتصف القاعة وعليها خارطة طيران ومجسم صغير لطائرة ما لم يكترث جميل بمعرفة نوع طرازها، وسأل على مضض: «موقع الاختفاء؟».

مسح المدير زخَّات العرق عن جبينه وقال بلهجة متوترة: «زكريا يربط الاتصال الآن مع موظف برج المراقبة في مطار جون إف كيندي، سنعرف كل شيء منه بالتفصل بعد لحظات».

نظر جميل إلى الجانب الأيسر من المكان، حيث كان يجلس موظف الهاتف السيد عمر زكريا، الذي بدا منهمكًا تمامًا في عمله حتى إنه لم ينظر إلى جميل منذ وصوله. وقد هتف في تلك الأثناء: «إنه معي على الخط بالفعل يا سيدي».

- اجعله يتواصل معنا فورًا.

قال جميل ذلك وهو يضع سماعة أذنين كبيرة على رأسه أشبه بتلك التي يرتديها الطيَّارون وهبت عليه عواصف الصداع الرهيب مرة أخرى فتجاهلها قدر الإمكان وهو يستمع إلى ما يصل من صوت من العالم الآخر. قال المتحدث بلغة إنجليزية واضحة ونبرة رسمية جادة: «مرحبًا، معكم مايكل آدمز موظف في مطار جون إف كينيدي ومسؤول عن...».

قاطعه جميل بسأم وفضاضة: «أعرف ذلك سيد مايكل ولا وقت لدينا للتعارف أرجوك، هل لديك أي جديد بخصوص الطائرة المفقودة؟».

سكت هنيهة، ثم وبصوت أقل حيوية قال: «حاليًّا ليس لدينا الكثير من المعطيات، أتفهم توتركم فالأمر محيِّر فعلًا، ولا يزال موظَّفونا يحاولون التواصل مع طاقم الطائرة بأي شكل ولكن دون نتيجة حتى الآن، تواصلنا أيضًا مع فريق الصيانة لتفحص أجهزتنا لعل الخلل يكمن في أجهزة الرصد لدينا وليس هناك أي نتائج سلبية بهذا الخصوص».

- هل لك أن تطلِعني على الخط الزمني للأحداث حتى الآن؟

قال جميل ذلك بعدما حمل دفترًا صغيرًا أسود الغلاف وقلم حبر جافٍّ وهو يفك أحد أزرار قميصه، فالحرارة في المكان لا تُطاق، وتساءل عن جدوى وجود المكيفات الهوائية هناك، كان "علي" مدير المطار يضع السماعتين بدوره ويصغي باهتمام بالغ للمحادثة التي تدور بين جميل ومايكل عبر خط ثانٍ.

- الساعة 01:20 دقيقة انفصلت السلالم عن الطائرة وبدأت بالتحرك نحو المدرج الثاني والعشرين للجناح إف تمهيدًا لإقلاعها، أممم تشير تقاريرنا أن كل شيء كان سليمًا في الطائرة وقتها، تحصَّل الكابتن على الإذن بالإقلاع وفعل ذلك بكل كفاءة.

غمغم علي منصور وهو يهز رأسه موافقًا: «أجل، فالكابتن «حبشي» قائد الطائرة من أقدم وأمهر الطيَّارين في الشرق الأوسط».

كان جميل يدوِّن ذلك كله على الدفتر بعدما طوى غلافه الجلدي الأسود للخلف دون أن يفوِّت حرفًا واحدًا، وأضاف الموظف الأمريكي: «طوال الدقائق الثلاثين الأولى بعد الإقلاع كان كل شيء على طبيعته وقد وُجِّه طاقم القيادة نحو المسارات المحددة، وفي حدود الساعة 01:50 بالتوقيت المحلي لشرق الولايات المتحدة الأمريكية فقدنا الاتصال مع طاقم الطائرة، واختفت هاته الأخيرة من شاشات الرادار لدينا وكان آخر ظهور لها على مسافة مئة كيلومتر جنوب جزيرة نانتوكيت، فيما لا نزال نحاول الوصول إليها حتى الآن بلا نتيجة».

كان جميل يستمر في التدوين وسأل دون أن يرفع عينيه عن دفتره: «آخر ارتفاع لو سمحت؟».

- آخر ارتفاع سُجِّل للطائرة قبل اختفائها هو 33 ألف قدم.

معدل عادي، بل وممتاز أيضًا. قال جميل ذلك لنفسه ثم سأل مايكل مرة أخرى: «في أي توقيت أطلق الكابتن نداء الاستغاثة لآخر مرة؟»

ماي داي هي المصطلح المتعارف عليه دوليًّا في الملاحة الجوية والبحرية وحتى في مجال السكك الحديدية، حيث يطلقه سائق القطار أو ربان السفينة أو كابتن الطائرة إذا لاحظ وجود أي ضرر أو خلل أو عامل خارجي أو داخلي من شأنه تشكيل خطورة على المركبة سواء كانت قطارًا أو باخرة أو طائرة، وتسمى هذه الكلمة «نداء الاستغاثة» وعلى صاحبها أن يكررها لفظيًّا ثلاث مرات لكي لا يُخلَط بينها وبين أي كلمة أخرى، فهي حرفيًّا تعني أن المركبة في خطر مميت.

أجاب مايكل بعد صمت وجيز: «أممم، لم يطلق الكابتن نداء الاستغاثة سيدي...».

كبت جميل غضبه وقال بتهكم وهو يقاطع محدِّثه الأمريكي: «هل تريد القول إن طائرة على متنها 217 راكبًا قد تبخَّرت في الهواء بعد نصف ساعة من إقلاعها دون أن يطلق قائدها أي نداء استغاثة؟ أهذه أحجية يا سيد مايكل؟ إن أكثر شيء من البديهيِّ حدوثه في حالات كهاته أن يطلق الكابتن نداء استغاثة، هل أنت موظف في المطار حقًّا أم مجرد غبي لا يدري ما الذي يحدث؟».

- أرجو أن تهدِّئ من روعك سيدي، أتفهَّم مشاعرك جيدًا، ولكني أنقل لك ما يجري بناء على ما لديَّ من معطيات.

تنهَّد جميل، ثم قال مستسلمًا للأمر الواقع: «أشكرك على تفهُّمك سيد مايكل، الخط مفتوح وبإمكانك التدخل في أي لحظة، سأكون شاكرًا جدًّا لك لو تطلِعني على آخر المستجدات أولًا بأول».

- طبعًا سيدي.

دخلت ليلى في تلك اللحظات بوجه عابس حزين ووضعت حبتين من الدواء على المكتب وكوب ماء كانت تحمله بعناية، شكرها جميل وأضاف: «أريد معلومات شاملة حول الطائرة على مكتبي فورًا يا ليلى، تاريخ تصنيعها وهندستها وتصميم كل قطعة رئيسية وفرعية فيها، يمكنك التواصل مع وكلاء شركة بوينغ، أريد كل شيء حول هذه الطائرة بعد نصف ساعة كأقصى تقدير».

هزت رأسها موافقة وانصرفت إلى عملها.

وضع جميل السماعة على المكتب، وراح يدور في تصورات عقيمة لا تقود إلى أي حل منطقي واضح. *طائرة بكامل الاستعداد التقني تختفي فجأة وبلا سابق إنذار من شاشات الرادار فوق المحيط الأطلسي على الساعة الثانية بعد منتصف الليل ولا يطلق قائدها نداء استغاثة حتى؟ لغز أغرب من الخيال، 217 راكبًا يا جميل، رقم ضخم جدًّا ولن تتحمل الأمة المصرية مزيدًا من الوقت دون معرفة مصيرهم. ما الذي حدث معكم يا كابتن حبشي؟*

- ما رأيك يا جميل؟

قطع علي منصور عليه خلوته بصوته الناعس المدلل وهو يتحسس لغده السمين بحيرة.

طأطأ جميل رأسه وهو لا يدري ما يقول، لقد كان يفكر ويفكر، ويحاول ترتيب أفكاره لفهم أحداث هذه الليلة التي لا تبدو له منطقية على الإطلاق.

- لا أدري ما أقول يا سيدي، كل شيء في كفة وعدم إطلاق أي نداء استغاثة من قِبل الكابتن في كفة.

- أيكون عملًا إجراميًّا؟ كالاختطاف مثلًا؟

استمر جميل في مراقبة دفتره وتمرير عينيه على ما كتبه حين كان يتحدث مع مايكل، وأجاب بلا تركيز: «فكرت في ذلك، ولذلك سألت عن نداء الاستغاثة، لكني الآن أستبعده تمامًا، فلو حدثت عملية اختطاف للطائرة لكان برج المراقبة في مطار نيويورك قد سمع ذلك قبل وصول المختطِفين إلى قمرة القيادة أو على الأقل كانوا سيسمعون صوت مقاومة أو شجار للسيطرة على قمرة القيادة».

قال ذلك ثم رفع رأسه عن دفتره وأسهب قائلًا: «أضف إلى ذلك أن المختطِف لا يقطع الاتصال ببرج المراقبة، فالخطوة التالية لأي عملية اختطاف طائرة هي الاتصال بالأرض لكي يملي المختطِفون شروطهم أو طلباتهم، لو كانت الطائرة تعرضت للاختطاف فليس من

مصلحة المختطِفين تمامًا أن يقطعوا الاتصال ببرج المراقبة تحت أي سبب كان».

وضع عينيه على دفتره من جديد..

الارتفاع 33 ألف قدم..

آخر ظهور..

100 كيلومتر جنوب جزيرة *نانتوكيت*، بينما نظر إلى الخريطة الموضوعة على الطاولة وشرد فيها قليلًا، كان علي وزكريا يتحدَّثان باستنتاجات عشوائية لم يركز جميل معها كثيرًا.

كان يحدِّق إلى الخريطة الموضوعة على الطاولة، تتبَّع مسار الطائرة بعينيه من لوس أنجلوس إلى نيويورك، ثم من نيويورك إلى موقع الظهور الأخير للطائرة على شاشات الرادار.. برقت لحظة إدراك مروِّعة في دماغه فجأة فجحظت عيناه وفتح فمه بدهشة وبدا عليه أنه انتبه لشيء غريب.

أيمكن أن يكون ذلك مصادفة؟ غير معقول.. هذا جنون!

أنور

(أواخر ديسمبر 2022/ القاهرة)

كان يحدِّق إليها من بعيد مبتسمًا محاولًا تصديق هذه الصرامة على ملامحها ونظراتها وهي تلقي المحاضرة على طلَّابها بصوت نافذ ولهجة قاطعة، كأنها ليست المرأة التي يعرفها بل إنسانة أخرى، لقد وصل قبل نصف ساعة وجلس ينتظرها في قاعة المحاضرات هناك في الخلف على أحد الكراسي الشاغرة أمام نافذة مفتوحة، لكي يتسنى له أن يدخن سيجارته بحرِّية دون أن يزعج أحدًا، بينما كان الطلاب في المقاعد الأمامية على بعد عدة صفوف من المقاعد الفارغة عنه يصغون باهتمام بالغ للمحاضرة ويدوِّنون رؤوس أقلام حول ما تقوله أستاذتهم التي ملأ صوتها أرجاء القاعة: «... وعندما يتعرض أحدنا لمشكلة، يحاول حلها بطريقة أو بأخرى، وكما تعلمون فإن أسهل طريقة لحل المشكلة هي مواجهتها والتفكير في طريقة للحل، لكن

أحيانًا تكون هناك ضغوط نفسية كبيرة على قدرات المخ لمحاولة حل هذه المشكلات، فيلجأ إلى حيلة دفاعية للهروب لكي يحافظ على سلامته، هذه الحيل الدفاعية تؤدي أحيانًا إلى الاضطرابات الانشقاقية، وأهمها اضطراب فقدان الذاكرة الانشقاقي، فالمريض في هذه الحالة ينسى نفسه وهويته، مَن يكون وماذا يشتغل وغيرها من المعلومات المهمة عنه، وفي كثير من الحالات التي مرَّت علينا في العيادة سجلنا أيضًا اضطرابات تبدل الشخصية أو تبدل إدراك الواقع، والمريض في هذه الحالة يشعر بالانفصال عن نفسه والغربة عن مشاعره وأفكاره وذكرياته، ويعيش وسط عالم جديد أشبه ما يكون بالأحلام!».

قام أنور من مكانه وخرج من الباب الخلفي تاركًا «الدكتورة أبو موسى» تلقي محاضرتها فيما تبقى لها من دقائق قبل نهاية التوقيت، حيث فضَّل انتظارها خارجًا، نسرين أبو موسى هي صديقته منذ أيام الثانوية تقريبًا، وفي الوقت الذي تخصصت فيه هي في الآداب كان هو ذا توجُّه علمي، والنتيجة بعد كل هاته السنين أنها أصبحت طبيبة النفس بينما هو طبيب الجسد كما تحب أن تذكره دائمًا.

بدأ الطلاب في تلك الأثناء يخرجون تباعًا من البابين الأمامي والخلفي ففهم أنور أن صديقته القديمة أنهت محاضرتها، وبينما رآها تجمع وثائقها من المكتب في محفظتها أحاط بها عدد من الطلبة لمختلف الأسئلة والاستفسارات حول درس اليوم خاصة، وحول

التخصص بشكل عام، قبل أن تستأذن الجميع في الانصراف بلباقتها ورسميَّتها المعهودة.

وبعد سير استغرق ربع ساعة بالسيارة تقريبًا كانا جالسين في مقهى الفيشاوي، أحد أقدم مقاهي القاهرة وأشهرها، كان البرد شديدًا في الخارج لذلك اختارا مكانًا مناسبًا في الداخل حيث طلب كل واحد منهما قهوة ساخنة. على جدار المقهى عُلِّقت صور لشخصيات بارزة من الوسط السياسي والفني لأبرز أعلام الأمة المصرية، وهناك في أحد أركان المقهى على قطعة أثاث خشبية عتيقة وُضِع مذياع كلاسيكي يطلق أغاني أم كلثوم كالعنبر يبعث روائحه في الجو، الطاولات الخشبية للمقهى كانت شواهد على العصر، تعرف أسرار الناس ومشكلاتهم المختلفة، أحلامهم التي لم تتحقق وطموحاتهم التي كبح الزمن جماحها، ولو تكلَّم خشب هذه الطاولات يومًا ليحكي ما سمعه من وشوشات الناس لتصدَّعت أهرامات الجيزة وخرَّ أبو الهول لهول ما سمعه صريعًا أمامها.

ضرب أنور توفيق رأس عود الثقاب في مشط علبة الكبريت فالتهب مشتعلًا، وقرَّب الشعلة من سيجارته وهو يجذب أنفاسًا من مصفاتها، فاستغرقت لحظة وجيزة ليصبح رأسها مضيئًا ينبعث منه الدخان كسيارة قادمة من بعيد تبادر ضوؤها الأمامي بين الضباب.

- إلى متى ستظل تدخن بهذه الشراهة يا أستاذ أنور؟ أيها الطبيب الجرَّاح الذي من المفترَض أن يكون قدوة للناس في الحفاظ على صحته.

قالت ذلك بتهكم وهي ترفع حاجبًا وتخفض الآخر، فابتسم لها وهو يطلق الدخان من بين شفتيه اللتين نبتت حولهما لحيته الخفيفة كأعشاب الخريف: «إلى أن أنتهي من معالجة أقدم مرضاي يا صديقتي العزيزة».

- يبدو عليك التعب، ثمة اسوداد واضح على وجهك وأسفل عينيك خاصة.

تنهد وانبعث مزيد من الدخان من فمه وأنفه، ثم أصغى لأم كلثوم وهي تصدح برائعتها «الأطلال» من مذياع المقهى الذي كان يبعث دفئًا في خامة صوت «الست» لا يقل شأنًا عن الدفء الذي تبثه المدفأة العتيقة التي كانت على مسافة مترين من طاولتهما، كانت السماء غائمة والزحمة على عادتها في الشوارع خارج المقهى. لم تمطر منذ زمن في القاهرة ولكن فصل الشتاء في هذه المدينة بارد جدًّا على نحو يجعل الحياة أكثر صعوبة وبخاصة على العزَّاب.

- آه يا نسرين، لقد كانت ليلتي أمس بألف ليلة وليلة...

قاطعته ساخرة: «هل تزوجت مثلًا؟».

أطلق سحابة أخرى من دخان سيجارته ونقر على منتصفها نقرتين خفيفتين، فانهارت كومتان من الرماد على صحن السجائر في الطاولة ورد على جليسته متجهمًا: «أتكلم جادًّا، لم أنم إلى الآن منذ ليلة أمس، لقد كانت واحدة من أغرب الليالي التي مرَّت عليَّ منذ التحاقي بمهنة الطب على الإطلاق».

عقدت نسرين حاجبيها وراحت تصغي في اهتمام بالغ دون أن تنبس ببنت شفة، إنها تسمح له بالكلام فحسب، تدع له مجالًا ليفصح عن كل مكنوناته، ليفتح لها كهفه العميق في دواخله ثم يتركها تنقِّي منه ما يشبع فضولها حوله فتكون قادرة أكثر على مساعدته وانتشاله من متاهته.

- كنت مناوبًا في المشفى ليلة أمس...

وراح يسرد وهي تصغي في اهتمام شديد.

***

«كان البرد شديدًا في الخارج لذلك أغلقنا تقريبًا جميع النوافذ، لم يكن هنالك شغل كثير كالعادة وحتى الحالات المستعجلة التي كانت تصل إلى المشفى لم تكن خطيرة لتلك الدرجة التي تستدعي تدخلًا جراحيًّا، فأغلب المرضى كانوا يُفحَصون ويُعالَجون عن طريق الطبيبَين المناوبَين في جناح الطوارئ، ولذلك كانت أغلب مهامي تقتصر على مراقبة الوضع الصحي للمرضى المقيمين في جناح

الإنعاش، إذ بينما تصل إليَّ الممرضة المناوبة بالتقارير الطبية بين الفينة والأخرى لبعض الحالات المستقرة، أشرف بنفسي على مراقبة الحالات الأكثر حرجًا.. كنت قد طلبت بيتزا وجلست في غرفتي في قلب الجناح وقللت من إنارتها وشغَّلت التلفاز الذي كان مليئًا ببرامج سخيفة لم أشغل بالي كثيرًا بها، لكني أبقيه مشتعلًا عادة من باب الاستئناس فقط، غير أني كنت أنهيت مشاهدة مباراة جميلة في كأس العالم وقتها، ولم يكن هنالك الكثير من الحالات في جناح الإنعاش إلا سبع أو ثماني حالات على الأكثر، حسنًا لنقل سبع حالات، فكما سمعت إحدى الممرضات تقول يومًا: «إذا كنا نريد عدَّ نزلاء جناح الإنعاش فيجب ألا نعد معهم النزيل في الغرفة الرابعة»، وذلك لأنه أصبح جزءًا من الجناح، أصبح من معالمه ومن الأشياء البديهية فيه، كثير من الممرضات حين التحقن بالمشفى كنَّ في سن الزهور، وأصبحن الآن على مشارف سن اليأس، منهن مَن تزوجت ومنهن مَن تركت مهنة التمريض نحو مهنة أخرى ومنهن مَن ماتت، تعاقب الكثير من الأطباء والممرضين على المشفى ومرَّت أزمات صحية كثيرة، إنفلونزا الطيور وفيروس كورونا وحوادث مرور مروعة وجرائم قتل هنا وهناك وشجارات انتهت بجروح متفاوتة الخطورة، كل أزمة جاءت ورحلت أخذت معها من الجهد والتفكير المنهِك والذكريات المريرة ما أخذت، كان الزمن يتبدل ويتغيَّر ويتقلب ويمرُّ على مشفانا مرور السحاب في جو متقلب المزاج إلا الغرفة الرابعة في جناح الإنعاش، بقيت كما هي

تأوي مريضها كأنه تاسع أهل الكهف، الكثير من القصص المرعبة انتشرت حولها وأصبحت نذير شؤم على المشفى كله، حتى إن الناس أصبحوا يتجنبون هذا المشفى، وحتى لو اضطروا إلى القدوم فهم يرفضون بشكل قاطع أن يوضع أقرباؤهم في الغرفة الرابعة لجناح الإنعاش، وكأنها قبر قديم حلت عليه لعنة ما.

وكان أحد المديرين المتعاقبين على المشفى قد أوصى بأن تبقى الستائر منسدلة في تلك الغرفة، وألا تدخلها إلا أقدم الممرضات في المشفى، وذلك للحد من الشائعات التي تلفُّها، فزاد ذلك الطينة بلة حيث ازداد الفضول حول تلك الغرفة وأبدع الصحفيون في تأليف القصص حولها في صفحات الجرائد وشاشات التلفاز، ووصل الأمر إلى صناع المحتوى في مواقع التواصل الاجتماعي، لقد شغل النزيل الغامض في هذه الغرفة عقول الناس وأفئدتهم وأطلقوا عليه لقب «الملتحي النائم»، وهذا النزيل كما تعلمين يا نسرين هو أهم مرضاي على الإطلاق، إنه الإرث الثقيل الذي تركه لي معلمي البروفسور حامد».

***

كانت «الست» تصدح من مذياع المقهى بصوتها المرموق «أعطني حريَّتي أطلق يديَّ إنني أعطيت ما استبقيت شيئًا...» وقد امتزجت رائحة السجائر برائحة القهوة والحلوى واحتراق الخشب في الموقد القديم صانعة مزيجًا عجيبًا لعطر كانت نسرين مستعدة لدفع نصف

راتبها الشهري مقابل زجاجة صغيرة منه، تأثرت كثيرًا بكلام أنور، فقد تراقصت الدموع في عينيها وإن بدا عليها عكسُ ذلك، فالمرأة التي مثل نسرين أبو موسى موهوبة في إظهار عكس ما تشعر به، ارتشفت بعض القهوة وقالت وهي تعيد الفنجان إلى مكانه بعدما لاحظ أنور تبدل ملامحها من الفتاة المرحة المتهكِّمة التي كانت عليها قبل لحظات إلى الدكتورة الجادة التي كانتها في قاعة المحاضرات في الكلية: «أحيانًا لا يمكنني أن ألوم الناس حول فضولهم، فالأمر ليس بالبساطة التي تتخيلها يا أنور، ربما لا يشكِّل الموضوع فرقًا بالنسبة إليك، فقد رافقت هذا المريض وتابعت حالته الصحية منذ وصل إلى المشفى إلى اليوم، لكن أيَّ إنسان آخر حين يعلم أن ثمة مريضًا ظلَّ في غيبوبة لأكثر من... خمسة عشر عامًا في غرفة إنعاش؟ الأمر مثير للفضول على نحو مدهش بالنسبة إليه، ولأكون صريحة معك أكثر فالأمر مثير للفضول بالنسبة لي أيضًا، لكني أعتقد أنك تحمِّل نفسك فوق طاقتك يا أنور، لقد تحدثنا في هذا الموضوع من قبل وأعرف أن كلامي سيثير أعصابك لكني أحاول أن أساعدك».

قالت ذلك وقد وضعت يدها على يده برفق لكي تهدِّئ ثورة غضبه المتوقَّعة، فأنور قد عادى الكثير من أصدقائه بسبب هذا الموضوع تحديدًا.

لكنه فاجأها هذه المرة بهدوء عجيب وهزَّ رأسه مستدركًا: «بل عشرون».

- ها؟

سألت بعدما عجزت عن فهم مقصده، فاستطرد: «مدة الغيبوبة.. عشرون عامًا وتسعة أشهر واثنا عشر يومًا».

«هل رأى الحب سكارى.. سكارى مثلنا؟

هل رأى الحب سكارى.. سكارى مثلنا؟

كم بنينا من خيال حولنا...».

استمرت «الست» في بعث دماء الدفء من المذياع على أرجاء المقهى الذي يُخيَّل إلى مرتاديه أنه جثَّة باردة في تلك الصبيحة الميِّتة من ديسمبر العتيد لولا أم كلثوم، وبينما ظلَّت نسرين ساكتة مدهوشة من قدرة أنور على حساب طول المدة بهاته الدقة، استمر صديقها أيام الثانوية في الحديث.

***

«أخبرتني الممرضة سمية نوفل أنها أنهت جولتها على غرف المرضى في الإنعاش وأن الدور قد جاء على الغرفة الرابعة، وسمية هاته من أكثر الممرضات كفاءة وخبرة في المشفى، حتى إن كثيرًا من المرضى يقولون إنها أكثر مهارة من أطباء اليوم، وقد قضت زهاء خمسة عشر عامًا في مهنة التمريض، وهي واحدة من الممرضات القلائل المسموح لهن بدخول الغرفة الرابعة، ليس فقط لخبرتها وكفاءتها بل لأمانتها أيضًا، حيث قال لي مدير المشفى يومًا إنه يحاول اختيار الممرضات العزباوات لهذه الغرفة تحديدًا، إذ ليس لهن أزواج متطفلون أو أطفال

فضوليون ليسألوهم حول هذه الغرفة، ما من شأنه المساس بخصوصية المريض، فجمعت سمية إذن بين هاته المميزات الثلاث، الأقدمية والكفاءة والعزوبية، ما جعلها مناسبة تمامًا لهذه المهمة النبيلة.

طلبت منها أن تفحص الدورة الدموية وضغط الدم ومستوى الأكسجين ونشاط الدماغ، وكان ينتابني ذلك الشعور الروتيني بأن ما لم يتبدل خلال عقدين من الزمن لن يتبدل الآن، فقد كانت وظائف الجسم الحيوية كلها مستقرة بشكل عاديٍّ إلا الدماغ، كان أكثر نشاطًا على نحو مثير للدهشة، كأن المريض ليس في غيبوبة عميقة كل هذه السنين، أخذت سميَّة معها زجاجة سيروم وبعض الأدوية التي وصفتها له بشكل وريدي للحفاظ على حيوية أعضائه للبقاء على قيد الحياة، وبعض المعدَّات الأخرى الضرورية للفحص وخرجت من غرفة التجهيزات.

كنت ألتهم آخر قطعة من البيتزا وأشاهد الاستوديو التحليلي لإحدى مباريات كأس العالم التي كانت انتهت قبل نصف ساعة تقريبًا. رفعت قليلًا من مستوى جهاز التدفئة، فالبرد كان ينخر العظم على الرغم من إغلاق النوافذ، وقمت إلى الخزانة لأخرج بطانية جديدة حين سمعت صوت تحطُّم الزجاج على الأرض متبوعًا بشهقة عظيمة حبست أنفاس العالم أطلقتها سمية، كأن صعقة كهربائية عنيفة ضربتها، رميت كل ما في يدي وخرجت للرواق الرئيسي وقد انتبهت أن الصوت كان قادمًا من الردهة القديمة للجناح الثالث من الرواق الثاني حيث باب الغرفة الرابعة، ركضت نحوها وأنا أشعر أن عظامي تكاد تتلاشى كغبار تذروه الرياح من شدة الخوف، أيكون مات؟ لا تفعل ذلك بي

أرجوك.. وصلت إلى هناك وتبددت مخاوفي عليه بعدما سمعت صوت جهاز نبضات القلب على عادته «تيت.. تيت.. تيت... تيت»، كان الباب مفتوحًا على مصراعيه ودخلت حيث كانت تقف قبالة السرير وتنهج بذعر، وقطع الزجاج المنكسرة غارقة في سائل السيروم أمام قدميها.

- آآه لقد أرعبتِني يا سمية. نظِّفي الزجاج المتكسر وسأجلب قارورة أخرى.

استمرت في التحديق نحوي وأسنانها تصطكُّ ذعرًا وعيناها تريدان البكاء بلا جدوى، وبينما كانت ترجف حتى تكاد تسقط مغشيًّا عليها، رفعت يدها لتشير بإصبعها المرتعدة نحو السرير.

شيئًا فشيئًا حوَّلت نظري إلى حيث أشارت.. الغلاف الأزرق السماوي للفراش والبطانية الزرقاء التي تغطِّي قدميه، استمررت في رفع عينيَّ نحوه في لحظات ارتسمت لي فيها الأعوام العشرون الماضية في تلك البطانية الزرقاء، أسلاك الأجهزة الطبية الموصولة بصدره الأسمر الهزيل الذي لم يتبقَّ منه إلا عظم الترقوة، ورقبته التي برزت منها تفاحة آدم كمسمار دقَّ في منتصف عنقه، ثم قناع الأكسجين الذي انبعثت من تحته اللحية التي أصبحت فضية بعدما خالط سوادها كثير من بياض الشيب كأنها شلال متفجر يتدفق على باقي وجهه، ورقبته وبعض من وجنتيه اللتين برزت عظامهما بعدما تهالك وجهه الهزيل تحت طيَّات السنين.. لقد كان ينظر إليَّ بعينين مفتوحتين لأول مرة منذ أن أغلقهما قبل عشرين عامًا.. يرمش ببطء

شديد حتى تشعر أنه يغلقهما مرة أخرى لكنه يعود لفتحهما من جديد كأنه يجاهد ليبقيهما مفتوحتين، لقد أفاق يا نسرين، أفاق الملتحي النائم من غيبوبته ليلة أمس في حدود منتصف الليل.. أفاق أقدم مريض في المصالح الاستشفائية في مصر كلها».

***

خطفت نسرين السيجارة من يد أنور..

ولأول مرة في حياتها.. وضعت شفتيها على طرف السيجارة التي كانت تمسكها بإصبعين مرتجفتين وأخذت لنفسها رشفة عميقة...

جميل

كان يراقب كومة الأوراق التي وضعتها ليلى بين يديه في المكتب قبل لحظات. خفف الدواء من حدة الصداع عليه بعض الشيء، وبينما راح يقرأ المعلومات حول الطائرة المفقودة، قد حمل علي منصور سماعة الهاتف ووجَّه أوامره لموظَّفي برج المراقبة ألا يسرِّبوا خبر الطائرة المفقودة للطيَّارين الذين كانوا في رحلات جوية تابعة لطيران مصر داخل البلاد وخارجها في تلك الأثناء، لكي لا ينتشر الذعر والارتباك بينهم ويتحول الأمر إلى ما لا يُحمد عقباه.

بوينغ 767، أطلقت عليها السلطات المصرية اسم تحتمس الثالث، وهو أحد أقوى الملوك المصريين القدامى والمعروف عنه أنه لم ينهزم قط، انتُهي من تصنيع هذه الطائرة شهر سبتمبر من العام 1989، عشر *سنوات* منذ صُنِّعت. استمر جميل في قراءة الأسطر الأولى من

التعريف بالطائرة ثم دخل في بعض التفاصيل التقنية التي لها علاقة بها، إلى أن هتف قائلًا: «ثمة بصيص أمل يا جماعة».

لم تكترث ليلى كثيرًا لما يقول، لكن علي التفت إليه مدهوشًا ولاح بريق خافت في عينيه...

- لو كان هنالك خلل أصاب منظومة الاتصال والرادار في الطائرة فإن بإمكان الكابتن أن يعود أدراجه إلى مطار جون إف كيندي بنيويورك...

بسأم قاطعه علي منصور بلكنة صوته الناعسة التي يميِّزها تشديده في نطق الكاف والخاء: «أي طائرة هذه التي تستطيع الطيران خلال المحيط الأطلسي بعد منتصف الليل بساعتين دون أنظمة الرادار والاتصال يا جميل؟ هل فقدت عقلك؟».

قال جميل وهو يحك أنفه بطرف سبابته: «اختفت الطائرة بعد نصف ساعة من التحليق تقريبًا، وهي ليست بالمسافة البعيدة، إذ لا يزال بإمكانهم العودة أدراجهم إذا اعتبرنا أن المشكلة مشكلة أجهزة رادار واتصال، ثم إن طائرات بوينغ عمومًا تحتوي على جهاز تواصل لا سلكي للطوارئ، فإذا اقتربت الطائرة من المطار ودخلت ضمن نطاقه الكهرومغناطيسي سيكون بإمكان الكابتن ربط الاتصال ببرج المراقبة وطلب إذن لنزول اضطراري، وهذا هو الأمر الذي ينتظره

الأمريكيون حتى الآن على ما يبدو، للأسف يا سيدي ليس لدينا حل آخر سوى الانتظار والدعاء. وإن كان لديَّ تصور أقل تفاؤلًا بكثير..».

- ماذا تعني؟

قال علي منصور ذلك، فردَّ عليه جميل بوجه شاحب: «إذا سلَّمنا بأن منظومة الرادار في الطائرة قد تعرضت لخلل مؤقت جعلها غير مرئية في شاشات الرادار ببرج المراقبة في نيويورك، فإن اختفاء مؤشر الارتفاع قصة أخرى تمامًا، ذاك أن رادار برج المراقبة لا يلتقط ارتفاع طائرة من منظومة الرادار فيها، بل ثمة جهاز خاص يرسل مؤشراته إلى رادار برج المراقبة لكي يحسب هذا الأخير ارتفاع الطائرة بعمليات معقدة ليست موضوع بحثنا».

- وعليه؟

تساءل علي بنفاد صبر وهو يمسح زخَّات العرق عن جبينه بتوتر.

- أخشى أن اختفاء الطائرة على ذلك الارتفاع وعدم وجود أي مؤشر يدل على ارتفاعها الحالي ليس له إلا معنى واحد ووحيد، وهو أن الطائرة لم تعد موجودة أصلًا!

لم يكد جميل ينهي كلامه حتى اهتزت الأرضية هزًّا تحت أقدام الجميع، كأن غولًا ضخمًا يمسك الأرض من تلابيب ثيابها ويحاول إيقاظها من أحلامها، كبَّر علي وصاح زكريا بأعلى صوته وأمسك جميل برأسه الذي كاد يقع بين قدميه رعبًا.

- زلزال؟ زلزال؟

هتف جميل مدهوشًا وحاول الإمساك بأي شيء فلم يقدر، إذ مادت الأرض وانجابت بمن عليها.

واستمر الاهتزاز الأرضي العجيب لبضع ثوانٍ أخرى قبل أن يهدأ أخيرًا. بينما وضع علي يده على رأسه، كان جميل قد أخذ بيد ليلى بصعوبة وأدخلها معه تحت المكتب تحسبًا لانهيار أي جزء من سقف المبنى.

عمَّ الهدوء المريح الأرجاء مجددًا.. *لقد زال*..

تساءل جميل إن كان يذكر أصلًا أن القاهرة ضربها زلزال من قبل، وقف مجددًا وبحذر شديد نظر إلى من حوله، وعلى نحو غريب لم يكن شيء قد تغيَّر في المكان ولا حتى قلم سقط عن سطح مكتبه، على الرغم من أن الهزة كانت عنيفة حتى كادت تخلع قلب جميل من مكانه.

- هل الجميع... الجميع بخير؟

تساءل جميل، فسمع إجابة زكريا: «أجل، أجل أظن أن كل شيء على ما يرام والحمد لله. سيد علي؟ هل أنت بخير؟».

قام علي منصور من مكانه، وقال وهو يعدل من هيئته: «أجل، أنا بخير»، وانبعث البخار من فمه هذه المرة، البخار نفسه الذي كان ينبعث من فم ليلى قبل قليل، *بخار البرد القارص في هذا الجو المعتدل؟ ثمة شيء ما على غير ما يرام في هذه الليلة المشؤومة.*

سعل علي بقوة وانبعث مزيد من البخار من فمه، ثم قال وهو يتدارك نفسه بعدما طرحته الهزة الأرضية أرضًا في أثناء وقوع الزلزال: «ماذا؟ ماذا قلت لي؟ حول مؤشر الارتفاع؟ الطائرة لم يعد لها وجود؟ أوه هذا... هذا سيئ جدًّا يا جميل، يجب أن نبلغ السلطات فورًا... يجب أن... نبلغ سيادة الرئيس فورًا».

مسح آثار السعال الأخير عن شفته السفلى بمنديله القماشي الأنيق ثم قال متسائلًا: «المحرِّك، ماذا عنه؟ هل عثرت على أي معلومات تخص المحرك وتصميمه؟ هل هناك أي عيوب محتمَلة؟».

جلس جميل على مقعده وأخذ بقلمه بين يديه، كان غلاف ملف المعلومات الذي جاءت به ليلى مغلقًا وهو تقريبًا الشيء الوحيد الذي تحرك بسبب الزلزال، فأعاد فتحه من جديد وهو يقول: «بخصوص المحرك فإن شركة بوينغ تعمل مع ثلاث شركات من كبرى الشركات المصنِّعة لمحركات الطائرات، وقد كانت مذكورة هنا... هنا... أين هي. أين هي؟».

قال ذلك وهو يفتش بين كومة الورق ثم هتف: «آه، هذه هي.. شركة جنرال إلكتريك الأمريكية، شركة برات آند ويتني الأمريكية وشركة...».

قطَّب حاجبيه فجأة وهو ينظر إلى الورقة محاولًا التأكد من أن ما يقرؤه صحيح: «والشركة البريطانية.. رولز رويس؟».

لاحت بين عينيه السيَّارة السوداء فورًا.. رفع عينيه عن الملف وأول ما وقعت عليه أنظاره هو معاونته ليلى، وبينما كانت تنظر إليه في عينيه مباشرة وكأنها تقرأ أفكاره دون أن تنبس ببنت شفة، كان يقرأ هو ما في الملف.

أحمد

(قبل ثلاث ساعات/ مطار جون إف كيندي-نيويورك)

«مرحبًا عزيزتي، لقد دخلت للتو إلى قاعة الانتظار بعدما أنهيت كل الإجراءات الجمركية، ولم يستغرق ذلك مني الكثير من الوقت، وقد تمنَّى لي ضابط الشرطة سفرًا موفقًا، الجو لطيف هنا في نيويورك، موعد إقلاع الطائرة سيكون بعد نحو ساعة ونصف من الآن على الأكثر، سأواصل مطالعة الرواية التي جلبتها معي ريثما يحين الموعد، أو ربما قد أنام قليلًا، لقد هاتفتك مرارًا ولكنك لم تردِّي، مؤكد أنك نائمة. أراك في المطار عند وصولنا بحول الله. اعتني بنفسك حبيبتي. مع السلامة».

وضع أحمد سماعة الهاتف وقد شعر أنه استغرق عشرين عامًا في محاولة الاتصال بمخطوبته النائمة في القاهرة، وآلمته فكرة أنه لم يسمع صوتها لآخر مرة قبل التوجه إلى قاعة الانتظار للسفر.. لا

بأس يا عزيزتي، عشر ساعات على الأكثر بإذن الله ونكون معًا نتناول الطعام في أحد مطاعم القاهرة.

قال أحمد ذلك لنفسه، ثم خرج من كابينة الهاتف وتوجَّه نحو قاعة الانتظار حيث كان المسافرون قد بدؤوا بالتوافد عليها.. هؤلاء هم *رفاق السفر إذن؟* راح يقلِّب الوجوه ويفحصها لعله يعثر على ملامح مألوفة أو أي شخص يعرفه بطريقة أو بأخرى، كان هناك مجموعة من الشبان المفعمين بالحيوية والنشاط يتبادلون أطراف الحديث فيما بينهم بمرح وسعادة بادية على وجوههم، لأنهم على وشك الركوب إلى أرض الوطن، كانت أجسامهم رياضية وكل واحد منهم جاد الملامح ممشِّطًا شعره بعناية، كانت همهماتهم تبث عبقًا مصريًّا في أرجاء قاعة الانتظار، تساءل أحمد إن كانوا طلاب كلية ما أو تابعين لرحلة سياحية ما، فزيُّهم تقريبًا كان موحَّدًا، أزاح ناظريه عنهم وتفحص الوجوه الأخرى، طفل صغير في حضن أمه ذات العينين المرهَقتين، زوجان ينظران إلى ألبوم صورهما ويبدو أنهما حديثا الزواج.. *لا شك أنهما عائدان من شهر العسل.* كهل سمين يشبه الممثل المصري الكبير يحيى الفخراني وهو يقرأ جريدته المسائية، وشابَّة جميلة تثرثر مع أمها.. *وإنَّ لها جمالًا مصريًّا حقيقيًّا.* قال أحمد لنفسه ذلك، ذكَّره شعرها العسلي الداكن بخطيبته التي تغط في نوم عميق في مصر في هذه الأثناء، وبشكل ما شعر أن أوجه الشبه بينهما كثيرة، شفتان نحيلتان إلى حد ما وإن بدت الشفة العليا أكثر امتلاء، يغلب عليهما

اللون القرمزي بشكل خافت، وزادها طقمها الرسمي أناقة وجمالًا، غلبت بعينيها المصريتين الجميلتين كل نساء أمريكا في عقر دارهن.

غير بعيد عنها لاحظ أحمد شابًّا غريب الملامح يغط في نوم عميق كأنه ليس في قاعة مسافرين تعجُّ بالضجيج، لم يتبيَّن أحمد ملامحه جيدًا، فقد كان وجهه مخفيًّا على نحو غريب، والأغرب قدرته على النوم العميق وسط هذا الزحام! *هذا واضح أنه ليس سائحًا أمريكيًّا، بل مواطن مصري أصيل.* ثم صرف أحمد النظر إلى فناء المطار عبر زجاج القاعة الذي كان صافيًا كالماء باردًا كنسيم الصباح، وألقى نظرة على الطائرات في الخارج باختلاف الأحجام والألوان مدنية كانت أو تجارية أو خاصة، ومختلف شعارات شركات الطيران العالمية عليها، ولفت انتباهه أن مدرجات الطيران كانت مشغولة تمامًا، إما بوصول طائرة ما وإما بإقلاع أخرى.. *إنها نيويورك على أية حال، بل هي أمريكا، عاصمة العالم الحديث والحضارة الغربية، هنا رأس الأمر ومنتهاه، موطن الحل والعقد، في هذا البلد الذي لا يكف الناس عن زيارته من كل بقاع الدنيا لمختلف الأسباب سواء الدراسة أو السياحة أو العمل أو حتى العلاج، هنا في أمريكا تفتح الدنيا لك ذراعيها بأحضان من رخام ويستقبلك تمثال الحرية في خليج نيويورك ليعلن لك بوضوح أنك في بلد تقول فيه ما تشاء وتكتب ما تشاء وتعتقد بما تشاء وتفعل بنفسك ما تشاء، بشرط ألا تتعدى على القانون وحرية الآخرين..*

تمتم أحمد في قرارة نفسه ثم علَّق ساخرًا من ذلك كله: *بروباجاندا سخيفة*.

استمر توافد المسافرين على قاعة الانتظار تباعًا، بثياب أنيقة وملامح متعَبة، وحتى لو بدا كثيرون منهم مصريين فقد كان أحمد يشعر أن أغلبهم أمريكيون ولعلهم سيَّاح، إذ يفضِّل الناس من مختلف بقاع العالم زيارة مصر للسياحة في هذا التوقيت من السنة، حيث يكون الجوُّ معتدلًا والسفر متزامنًا مع العطلة السنوية لمعظمهم، تنهد أحمد وغمغم.. *إذا كانت أمريكا عاصمة العالم الحديث فمصر عاصمة العالم القديم، وبلد الحضارة التي ضربت جذورها في أعماق التاريخ وحيَّرت بمعالمها الأثرية العلماء والسياح في مشارق الأرض ومغاربها*.

بعثت ذكرى الحضارة المصرية القديمة في دواخل أحمد شعورًا قويًّا بالفخر والاعتزاز كاد ينسف نيويورك بمَن عليها.. نعم *نحن أيضًا قدَّمنا للإنسانية تاريخًا حافلًا بالإنجازات.. نحن أحفاد المصريين القدامى، القوم الذين تركوا بصماتهم لآلاف السنين فوق هذه الأرض بثلاثة أهرامات يحرسهنَّ أبو الهول وما أدراك ما أبو الهول*.

أخرج روايته من محفظته وفتحها على الفصل الموالي وشرع في قراءة الصفحة بنهم.. وضع الرجل على الرجل وأسند ظهره على المقعد ووضع محفظته على المقعد الشاغر بجانبه واتخذ أنسب وضعية مريحة له على الكرسي وشعر بنعاس خفيف، لكنه توقف فجأة عن المطالعة.. قطَّب حاجبيه وهو ينظر إلى الرواية وقد شعر

بشيء ما يتغلغل في أعماقه متسللًا كفتاة خجولة تمشي على قلبه بحذاء من مسامير، أهي الرواية؟ لا، الراوية على عادتها والورق على طبيعته، الشخصيات هي نفسها والكلمات نفسها والتعابير ذاتها، رفع رأسه ونظر إلى الأرجاء من حوله في المطار والتفت يمينًا وشمالًا، ثم نظر إلى المسافرين في قاعة الانتظار مرة أخرى وتفحَّص وجوههم واحدًا تلو الآخر، حتى إنه نسي الرواية مفتوحة بين يديه وهو يحدق إلى وجوههم بحثًا عن شيء لا يعرف تحديدًا ما هو.. شيء شعر أنه مشترك بينهم جميعًا، المصريين منهم وغير المصريين، شيء استشعر وجوده بقوة في ملامح وجوههم على اختلاف ألوانهم وأعمارهم، في الشباب الضاحكين وفي الفتاة العشرينية الهادئة وفي الشاب الذي يجلس قبالتها يغازلها بعينيه، بل حتى في وجوه الأطفال النائمين، شيئًا آخر غير الإنسانية وغير رابط الوطن والدم والعروبة والمجتمع، شيئًا آخر غير اللهجة المصرية والسحنة الخمرية.

استمر في التحديق إليهم ثم عاد إلى روايته وقرأ عنوان الفصل التالي الذي كان بعنوان «ليلة سقوط الدون..».

وثب من مكانه فجأة ونظر مجددًا إلى باحة المطار من زجاج القاعة وهو يحاول التأكد من عينيه، هناك في الساحة، حيث لا يُسمح عادة لأحد بأن يكون هناك إلا إذا كان من كبار الموظَّفين وعمال الصيانة، لمح أحمد فتاة صغيرة بثوب ناعم ناصع البياض وشعر كستنائي شديد الكثافة تنظر بحزن حولها وسط زحمة الطائرات!

كان أغلب من في قاعة الانتظار ينظر إلى باحة المطار عبر زجاج القاعة، لكنهم يتصرفون على نحو عادي، فلا أحد منهم بدا عليه أنه يرى هذا المنظر العجيب وهاته الفتاة الغامضة.

ففهم أحمد أنه الوحيد الذي رآها...

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

جميل

زادت عتمة المكان من حول جميل ومعها زادت الأفكار عتمة في رأسه الذي عاودته رياح الصداع من جديد وهذه المرة على نحو أشد قسوة.

كل شيء في هذه الليلة أغرب من الخيال، ثمة شيء ما غير صحيح، منذ وصلت إليَّ المكالمة الهاتفية من ليلى وأنا أشعر أنني كمن يبحث عن شعرة سوداء داخل غرفة دامسة الظلام جدرانها مطلية بالأسود القاتم، الرولز رويس والفتاة، وتصرفات ليلى الغريبة والهزة الأرضية، والطائرة.. ما الذي قد حل بالطائرة؟ ما الذي استولى على تفكير طاقمها تمامًا لكي يعجزوا حتى عن إطلاق نداء استغاثة؟ أين اختفوا في هذا الوقت المتأخر من الليل فوق المحيط الأطلسي؟ أحتاج إلى مزيد من التفاصيل، وأشعر أن الخطوط كلها متشابكة في عقدة ما..

عقدة لا يقل البحث عنها صعوبة عن الشعرة السوداء.

مزق عمر زكريا حاجز الصمت وهتف قائلًا: «مايكل يطلبك سيد جميل، يقول إن بحوزته معلومات جديدة بخصوص الطائرة».

هرول جميل نحو المكتب واختطف سماعة الأذنين قبل أن يرتديها، وبلا أية مقدمات بادره مايكل بالحديث: «ثمة حزمة بيانات وصلت إلينا للتو حول الطائرة ولكنها متأخرة، رادارات سلاح الجو الأمريكي لا تزال ترسل آخر المستجدات بهذا الخصوص، أول معلومة بحوزتي هي أن الطيَّار الآلي قد فصل عن الطائرة لحظات قبل اختفائها من شاشة رادارنا...».

هذا سيئ.. سيئ للغاية، الطيَّار الآلي سواء فُصِل من تلقاء نفسه أو يدويًّا من طرف الكابتن في الحالتين النتيجة واحدة، ثمة خلل تقني أصاب الطائرة.. قال جميل ذلك لنفسه مستنتجًا، وهو يصغي لمايكل الذي استمر في مصِّ شفتيه قبل كل جملة يقولها وهو يضيف قائلًا: «أممم لديَّ هنا أن الطائرة كانت على ارتفاع ثلاثة وثلاثين ألف قدم كما أشرنا سابقًا، قبل أن تنحدر بزاوية أربعين درجة نحو الأسفل».

انحدر قلب جميل بدوره نحو الأسفل، وقال مقاطعًا محدِّثه ذا اللكنة الأمريكية المشؤومة في تلك الأثناء: «التوقيت سيد مايكل، التوقيت من فضلك».

- أوكي.. أوكي.. أممم في حدود الساعة 01:50:10 كانت الطائرة على ارتفاع 33 ألف قدم حين مال أنفها نحو الأمام بزاوية

أربعين درجة، وفي تمام الساعة 01:50:44 كانت على ارتفاع... أممم 19 ألف قدم، عند هذا الارتفاع محركات الطائرة توقفت عن العمل أو أوقِفت.

19 ألف قدم؟ هذا جنون.. مستحيل.. هذا سيئ جدًّا!

انتفض جميل من كرسيه بقوة وصاح غاضبًا حتى تطاير اللعاب من فمه: «ما الذي تقوله يا رجل؟ هذا سقوط حر! 14 ألف قدم في غضون 34 ثانية فقط؟ أتريد أن تقول لي إن الطائرة هوت فجأة بسرعة تقترب من سرعة الصوت نحو الأسفل؟ ما الذي فعلتموه بطائرتنا؟».

سكت مايكل، واستولى الذعر على قلب جميل حتى شعر بالغثيان. كان زكريا يضع يده على رأسه مفجوعًا، وعلي يتصبب عرقًا كمن يتخبطه الشيطان من المس، بينما لم تبدِ ليلى أية ردة فعل واستمرت في النظر نحو جميل، النظرة ذاتها التي كانت توجهها نحوه منذ وطئت قدماه أرض المطار.

- مع الأسف سيدي هذه الأرقام... ممم.

بدت الأمور واضحة بالنسبة إلى جميل، لم يعد الأمر مجرد حدس محقق أو فرضيات تميل للأسوأ، لقد كانت هذه المعلومات الأخيرة مفزعة لدرجة جعلته ينهار جالسًا على الكرسي، بعدما حاول الوقوف على قدميه لكنهما لم تقويا على حمله كأنه فيل يقف على عودَي ثقاب محترقين.

- الوضع يزداد سوءًا يا جميل، هذا الموظَّف لا ينفكُّ يخبرنا بأشياء تخلع القلوب من الصدور.

قال علي منصور ذلك وهو يجفف عرق التوتر عن جبينه ومن تحت أنفه، وقبل أن يضيف أي كلمة أخرى أجابه جميل بيأس: «أخشى أن الذي تعرَّض له ركَّاب الطائرة هو ما يخلع القلوب من الصدور حقًّا يا سيد علي»، قال ذلك بعدما أنهى إنجاز عملية حسابية ما على إحدى ورقات دفتره الأسود.

- ما الذي تعنيه؟

أشار علي بكف يده نحو جميل وهالتاه المنتفختان تكادان تنفجران من الغضب والبخار يندفع من فمه بقوة كأنه داخل ثلاجة متجمدة، فأجابه جميل وهو يقرأ من دفتره الرقم الذي توصل إليه للتو: «22500 قدم في الدقيقة، تقريبًا هاته هي السرعة التي هوت بها الطائرة فجأة نحو الأسفل».

- ولكن يا جميل، ليس من الضروري أن يكون هذا الانحدار في ارتفاعها سقوطًا، قد يكون الكابتن اضطر إلى هكذا مناورة لسبب أو لآخر.

أشار جميل برأسه نفيًا وقاطع مدير المطار: «لا يا سيدي، أنت لا تفهمني، اثنان وعشرون ألفًا وخمسمئة قدم معدل مرعب جدًّا بالنسبة

إلى طائرة مدنية تنحدر من الأعلى للأسفل، طائرة بوينغ المدنية ليست مصممة للقيام بهكذا مناورات، وليس من العادي أن يكون الطيار في حاجة إلى القيام بها تحت أي ظرف».

- وماذا عن المحركات؟

- ماذا عنها؟

- المحركات يا جميل.. مايكل يقول إن محركات الطائرة توقفت عن العمل في ارتفاع 19 ألف قدم. أيعني هذا أن الطائرة قد سقطت رسميًّا؟ وهل انخفاضها بهذه السرعة قد يكون بسبب توقف المحركات؟

- لا أظن ذلك، ثمة شيء غامض أصاب الطائرة ليضطر الكابتن إلى فصل الطيَّار الآلي وإيقاف المحركات على حد سواء، ربما خلل تقني مفاجئ، أو ربما... لا أدري. لكن ما يمكنني أن أؤكده لك يا سيدي أن توقف المحركات وحده لا يمكن أن يؤدي إلى سقوط طائرة، ناهيك بسقوطها بهذا المعدل الهائل وهذه السرعة الفلكية.

نظر إلى ليلى، وقال بسأم بعدما ضاق ذرعًا من كل شيء: «اتصلي بالسيد يسري حامد يا ليلى وأخبريه أن يأتي إلى المطار بأسرع وقت ممكن، لا بد أن نستعين بخبرته وعبقريته في حل هذا اللغز».

أومأت برأسها وخرجت من هناك.

- سيد جميل، هل أنت تتحدث مع أحدهم في سماعة الهاتف؟

سأله عمر بدهشة ولم يكد جميل يستوعب المغزى من هذا السؤال الغريب حتى سمع مايكل يقول في السماعة: «سيد جميل، أنت هنا؟».

- أسمعك مايكل..

قال ذلك وهو ينظر إلى عمر الذي كان بدوره ينظر إليه نظرات استغراب لم يفهم جميل سببها، ردَّ مايكل بنبرة لا تبشر بخير: «لقد أظهرت رادارات الجيش قبل قليل أن الطائرة ومباشرة بعد وصولها إلى ارتفاع 19 ألف قدم في حدود الساعة 01:50:44، ارتفعت مجددًا نحو 24 ألف قدم، قبل أن...».

لمع استنتاج مرعب في عينَي جميل الذي كان يدرك منذ البداية أن الأمل ضئيل للغاية، وهكذا قال بصوت متقطع كأنه يتحدث إلى حشد من الجلادين من منصة إعدام: «قبل أن تنحدر بأقصى سرعة في سقوط حرٍّ نحو الأسفل، أليس كذلك؟».

أجاب مايكل بلهجة متكسرة: «أجل، كان آخر ظهور لها في شاشة الرادار العسكري على ارتفاع 10 آلاف قدم».

جثا علي منصور على ركبتيه، وانفجر عمر زكريا باكيًا منتحبًا.

ضاقت الأرض بما رحبت على جميل الذي شعر أن رأسه محاصَر داخل كيس بلاستيكي أسود مليء بالبخار الساخن، وقال لنفسه في يقين قاتل: *لقد أزفت الآزفة إذن، وهُزم تحتمس الثالث للمرة الأولى*

والأخيرة، فلن يكون هناك أي رادار قادر على التقاط طائرة البوينغ 767 التابعة لطيران مصر بعد اليوم.. لقد اختفت الرحلة 990 إلى الأبد!

***

- شهداء هذه الطائرة مدينون لنا بمعرفة حقيقة ما جرى لهم على الأقل، وإن كان هناك فاعل متسبب في هذه الكارثة فيجب أن توجَّه له أصابع الاتهام أمام الله ثم أمام المجتمع الدولي والتاريخ. يجب أن ننهي عملنا على أكمل وجه في هذا المكتب، بعد قليل سيشيع خبر الطائرة في كامل أصقاع الأرض، وستتوجه أنظار الأمة المصرية لنا لأنها مهنتنا، وواجبنا أن نجيب عن أسئلة الناس إجابات دقيقة حاسمة حازمة، وأن نخبر الأمهات والعذارى الحرائر والرجال الذين يبكون بحرقة في الخارج حقيقة ما جرى لأقربائهم على متن طائرة تحتمس الثالث فوق المحيط الأطلسي في ليلة ما فيها ضوء قمر.

بنبرة مرتجفة تحامل جميل على نفسه ووجَّه هذه الكلمات المشجِّعة لعمر وعلي. وتساءل عن ليلى التي لم تعد منذ أن خرجت للاتصال بالسيد يسري حامد كما طلب منها. نظر إلى ساعة يده لكنها كانت معطَّلة وعقاربها توقفت عن الدوران عند الثامنة وإحدى وأربعين دقيقة.

- قلت... قلت إن الطائرة توجهت بسرعة الصوت نحو الأسفل قبل أن يخبرك مايكل بارتفاعها الأخير، ما الذي جعلك متأكدًا يا جميل؟ لعل ثمة بصيص أمل ما؟ لعل الطيار اضطر إلى إجراء نزول إعجازي على الماء بسبب خلل تقني قاتل.

قال علي منصور ذلك ولم يكن باديًا عليه أنه يعي ما يقول، تجنَّب جميل أن يفصح له عن أكثر الاستنتاجات التي توصل إليها رعبًا وغرابة في الآن نفسه، واكتفى بأن يشير برأسه نافيًا وهو يقول مطأطئ الرأس نحو الأسفل بعينين مظلمتين وشفتين يابستين: «نحسبهم في الجنة إن شاء الله، على الأقل من هول ما رأوه في لحظاتهم الأخيرة».

بينما أطبق الصمت على المكان، وضع علي يده على وجهه باكيًا، وفي تلك الأثناء اقترب زكريا من جميل وسأله مستغربًا: «مع من كنت تتحدث قبل قليل يا سيد جميل؟ قبل اتصال مايكل الأخير».

- تقصد معاونتي ليلى المحمَّدي؟ طلبت منها أن تستدعي السيد يسري حامد لمساعدتنا في محاولة تفسير لغز هذه الطائرة لكنها خرجت ولم تعد حتى الآن. يبدو أنها مشغولة بالرد على أسئلة أحدهم في الطابق الأرضي.

تراجع زكريا خطوتين نحو الوراء كأنه أوجس خيفة من جميل، وفي استغراب شديد قال: «معذرة يا سيدي ولكن.. من ليلى المحمَّدي؟ ومن يسري حامد؟ ليس هنالك موظفون في المطار بهذين الاسمين على حد علمي!».

أحمد

(قبل ساعتين تقريبًا/ مطار جون إف كيندي)

رن منبه المطار بموسيقاه اللافتة، وتحدثت موظفة الصوت بلغة إنجليزية رسمية فهم منها أحمد أنها تنادي المسافرين المتوجهين إلى القاهرة عبر الرحلة 990 التابعة لطيران مصر وتطلب منهم أن يتوجَّهوا إلى البوابة السابعة، وهكذا قام المسافرون من أماكنهم في قاعة الانتظار الرئيسية وكل واحد منهم يلتفت من حوله ليتأكد أنه لم ينسَ شيئًا من أغراضه أمام الكراسي أو تحتها، وتسابق الأطفال نحو البوابة متبوعين بأهاليهم، لا تزال تلك الفتاة الغريبة التي ظهرت في ساحة المطار تشغل تفكير أحمد إلى أن انتبه إلى أن ذلك الشاب المجهول لا يزال نائمًا، وبطريقة ما لا يزال أحمد عاجزًا عن تمييز ملامحه، توجهت نحوه الشابة الجميلة ذات الطقم الرسمي وربطة الشعر الحمراء وانحنت لتوقظه من نومه وتخبره أن ميعاد ركوب

الطائرة قد حان، ابتسم أحمد وهو يتساءل هل كان سيبقى نائمًا وتفوته الطائرة لو لم توقظه ذات ربطة الشعر الحمراء تلك؟ يجب أن يكون صاحب نوم ثقيل حتى يحدث معه ذلك، خطيبته كانت من ذلك الصنف من الناس، فهي كما تقول أمها، حين تنام تغط في سبات عميق ويصعب إيقاظها ولو قامت معركة بالمدافع والصواريخ على مسمعيها.. *ستضيع طائرتها حتمًا لو كانت نائمة في قاعة الانتظار مكان ذلك الشاب*. لم يفهم أحمد لماذا شعر بحزن ثاقب في تلك اللحظة بالذات.

كانت الطائرة من صنع شركة بوينغ، في البداية لم يتعرف أحمد على رقم الطراز بالضبط، لكنه سمع أحد الركاب يثرثر مع صديقه أنها «بوينغ 767». هناك في بداية الطابور، كان المسافرون قد بدؤوا في صعود الطائرة بالفعل بعد أن استعرض كل واحد منهم بطاقة العبور للضابط الذي يقوم رفيقاه بآخر عمليات تفتيش في الحقائب اليدوية، لكي يتأكدوا من عدم وجود بعض الأغراض البسيطة والممنوعة في الطائرات عادة كالأدوات الحادة والسوائل وغيرها. نكهة الجو كانت منعشة للغاية بعثت في فؤاد أحمد شعورًا فريدًا بالغبطة والسرور وهو يتساءل إن كانت الرحلة نحو مصر ستستغرق أقل من عشر ساعات، كان الأطفال قد بدؤوا في تكوين الصداقات والأهالي يتبادلون التعليقات حولهم، هذا ينادي ابنه وتلك تنبِّه ابنتها ألا تبتعد كثيرًا،

والجميع يتقدمون خطوة خطوة نحو الأمام في الطابور متوجهين نحو السلالم لصعود الطائرة.

كان مجموعة الشبَّان ذوي الزي الموحد قد أنهوا استظهار هوياتهم جميعًا وتوجهوا إلى منطقة تقع بالقرب من ذيل الطائرة لكي يلتقطوا صورة جماعية، ولفت انتباهَ أحمد وهو ينظر إليهم رمزُ الطائرة بالقرب من ذيلها **SU-GAP**، وسمع أحمد أحد المسافرين يهمس لصاحبه بأن هؤلاء ضبَّاط مصريون.. *هذا صحيح تذكرت!* كان قد قرأ قبل أيام في إحدى الصحف أن فوجًا من 33 ضابطًا مصريًّا قد اختتموا دورتهم التكوينية في الولايات المتحدة الأمريكية، لم يتصور أنه سيصادفهم في طريق العودة وقتها وأنهم سيكونون معه على متن الطائرة، ويا لها من مصادفة غريبة وسعيدة أيضًا وبخاصة أنه سمع بأن أحد علماء الذرة المصريين أيضًا من ضمن الركاب، فجال بخاطره أن هذه الطائرة تحمل مستقبل الأمة المصرية على نحو مشرِّف ونبيل، ثلاثة وثلاثون ضابطًا من كفاءات الجيش وعالم في الفيزياء الذرِّية، يا لها من أمة ولَّادة!

نظر نحو السماء وكانت مظلمة حالكة الظلمة خالية تمامًا من النجوم، وتساءل أحمد إن كانت أضواء مدينة نيويورك وزحمتها هي التي حجبت النجوم عن سمائها، أم أن ذلك بفعل الغيوم؟ *هذا ليس وقت الغيوم والمطر والعواصف يا نيويورك، انتظري حتى تغادر طائرتنا أجواءك رجاءً..* قال أحمد ذلك لنفسه بعدما استظهر بطاقته

لعون الأمن الذي تفحصها وتأكد منها قبل أن يمنحه الإذن بالصعود على متن الطائرة ويباشر عمله مع المسافر التالي.

التفت إلى باحة المطار وشعر وهو يضع أولى خطواته على سلم الطائرة أنه قد وضع قدمه على أرض مصرية وإن كانت الأجواء لا تزال أمريكية، بفخر واعتزاز قال لنفسه وهو يصعد السلالم: *هذه الطائرة لنا، فيها رائحة بلادنا وعبقها المجيد حتى وإن كانت بعيدة عن مصر آلاف الأميال..* شعر بالمزيد من الشوق للبلد وهو يسمع مضيفة الطيران ترحِّب بالمسافرين بلهجة مصرية تارة وبلغة إنجليزية تارة أخرى، ولم يشعر أحمد بذلك التوتر المعتاد الذي ينتابه غالبًا قبل ركوب أي طائرة، رحَّبت به المضيفة بلطف ورد لها التحية بابتسامة عفوية وتفحصت تذكرته لكي تساعده على التوجه نحو مقعده، وقد كان يتمنى من أعماقه أن يكون مجاورًا للنافذة وهو ما كان.. خلع سترته فالطائرة كانت أكثر دفئًا على نحو مريح، وجلس أقصى اليمين وخطرت في باله مخطوبته حين نظر إلى المقعد المجاور له وكان شاغرًا.. *قد نعود لقضاء شهر العسل هنا يومًا ما، لمَ لا؟* جعلته الأضواء الداخلية يشعر بالنعاس وقد بدأ يتثاءب بالفعل في وقت لا يزال الركاب فيه يتخذون مقاعدهم. وجلست بجانبه الفتاة الجميلة التي قرر أن يسميها «ذات ربطة الشعر الحمراء»، كانت أنيقة في ثيابها لطيفة في حديثها وهي تساعد أمها في ربط حزام الأمان، ثم التفتت إليه وابتسمت معتذرة إن كانت سببت أي إزعاج في أثناء حركتها، اتخذ جميع الركاب مقاعدهم

وأغلق المضيف باب الطائرة وتحركت السلالم من تحتها.. رحَّب بهم الكابتن باللغتين العربية المصرية والإنجليزية وأخبرهم أنه يتمنى لهم قضاء وقت ممتع على متن الطائرة، ومشت نحو مدرج الإقلاع البوينغ 767 التي تحمل اسم «تحتمس الثالث» وشعار مصر للطيران، ناثرة عبقًا فرعونيًّا على مطار نيويورك الدولي، ألقى أحمد في تلك الأثناء نظرة أخيرة إلى المطار من النافذة كأنه يبحث عن شيء ما في باحته، وأزعجه تذكر تلك الفتاة الصغيرة الغامضة التي كانت تقف في ساحة المطار قبل قليل على نحو مثير للريبة، توقفت الطائرة في بداية المدرج استعدادًا لإقلاعها، ثم وصلت تلك اللحظة التي يحبها أحمد منذ كان صغيرًا، تلك اللحظة التي تنطلق فيها الطائرة بسرعة جنونية وهي تخرط الأرض بعجلاتها، ثم تراقصت أمعاؤه وتزايدت دقات قلبه حتى إنه كان يصيح داخل أعماقه، وشعر أن مقعده يشده إليه بحنان وهي تميل بهم مرتفعة، إنه الطيران، أغلى وأجمل شعور يمكنك أن تشعر به وأنت على قيد الحياة، وارتفعت أكثر فأكثر، كان ينظر من النافذة ويراقب نيويورك التي تتراقص تحتهم متمايلة حتى استوت الطائرة تمامًا في السماء، فاستقر مشهد المدينة من تحته كأطنان من الألماس تلمع في الظلام، أو كأن مجرَّات النجوم التي غابت في السماء قد هبطت لتستقر على الأرض، قرر أن يحبس ذلك المشهد في ذاكرته لكي يسرده لمخطوبته ذات يوم..

سافر أحمد على متن الطائرة في كثير من المرات، ولقد كانت هذه أجمل لحظة إقلاع ينعم بها طيلة حياته كلها، أنهى الكابتن جولته فوق ساحل نيويورك واستدار بالطائرة شرقًا نحو الوجهة المنشودة، أم الدنيا، مصر.. سيحلِّقون إليها عبر المحيط الأطلسي في رحلة تدوم لساعات. لاحظ أحمد أن أحد مقاعد الركاب على مرمى بصره كان شاغرًا، هذا غريب، فجميع الأماكن كانت محجوزة على حد علمه.

يبدو أن أحد الركاب قد فاتته الطائرة..

أنور

ذوَّب قطعتين من السكر في فنجانه وعيناه ذابلتان تعبًا، لقد شرب الكثير من القهوة مؤخرًا ودخَّن بشراهة حتى كاد يشعر بالقطران والنيكوتين يقطران من رئتيه، كانت نسرين تراقبه وهي تمسح بقايا طعام العشاء عن شفتيها، وقالت بلهجتها الساخرة المعهودة التي تلطِّف بها الأجواء قليلًا: «إذا بقيت هكذا فلا شكَّ لديَّ في أن وضعك لن يكون أقل سوءًا من وضع مريضك الذي تسعى لعلاجه».

تبسم ابتسامة لامعة وقال بعدما ارتشف بعضًا من القهوة: «يا لها من نبرة متفائلة، في الواقع هذه أغرب حالة مرضية مرَّت عليَّ على الإطلاق. إنه يجعلني أمارس مهنة الطبيب والمحقق والطبيب النفسي في آنٍ واحد. الإنسان يعيش مرة واحدة لكنه يموت ألف مرة بحثًا عن الحقيقة كل يوم يا نسرين».

- ما أكثر ما يقلقك بشأنه حتى الآن؟

تساءلت وهي تحرِّك القهوة في فنجانها ووضعت قدمًا على الأخرى..

أجابها شارد الذهن: «أن العلم قد لا يكون كافيًا لمعالجة حالته، لقد اخترت المسار العلمي منذ كنت شابًّا في الثانوية، ولطالما كنت مؤمنًا بالمنطق العلمي، وأن كل شيء في هذه الحياة يفسَّر بالعقل والمناهج العلمية، لم أقتنع يومًا بالغيبيات إلا تلك التي وردت في ديننا الحنيف. تعرفين قصدي، الملائكة والشياطين الجنة والنار.. يوم الحساب...».

أومأت برأسها مشيرة بنعم وهي تصغي باهتمام بالغ له حيث أسهب في حديثه: «مواضيع كهذه يتعطل العقل البشري في محاولة فهمها، ولا يمكن لنا إلا أن نؤمن بها إيمانًا جازمًا كونها وردت في القرآن الكريم وجاءت في سنة نبينا -عليه الصلاة والسلام- لكن عدا ذلك، بعض القصص التي تتحدث عن الأساطير والخرافات التي عفا عليها الزمن، الأشباح وقصص الموتى السائرين وتجربة خروج الروح من الجسد وغيرها من الفانتازيا الغامضة، لم تدخل عقلي يومًا بشكل أو بآخر حتى في الأفلام. لكني أجد نفسي اليوم...».

ضحكت بتهكم وقاطعته ساخرة: «تجد نفسك تنزل بجلالة قدرك وعقلك العلمي القادر على تفسير كل شيء إلى مستوى طبيبة نفسية أدبية مثلي لكي تحاول فهم الظواهر الغريبة التي تواجهك بمساعدتها...».

- لا لا.. ليس هذا ما قصدته، الخوف هو ما يقلقني يا نسرين، لقد بحث الإنسان عن الحقيقة دائمًا منذ فجر التاريخ، وكلما عجز عن تفسير ظاهرة ما تفسيرًا منطقيًّا أعطاها صبغة أدبية مرعبة، إن أحد أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور العلوم وتطورها هو أن الإنسان سعى دائمًا للقضاء على خوفه مما لا يفهمه عبر تفسيره تفسيرًا منطقيًّا وإيجاد أجوبة دقيقة وواقعية لكل الأسئلة الغامضة التي انتابته على مر العصور، فالجهل بالأشياء يصنع الغموض من حولها، والغموض يستدعي الخوف والقلق. لقد بدأت أخاف من هذا المريض يا نسرين، وهذا ما يزعجني. إن كل ما يقوله غامض، غامض جدًّا. فكرة الاستماع لشخص عائد من غيبوبة مدتها عشرون عامًا أشبه بالاستماع لشخص عاد من الموت، مكنونات هذا الرجل يا نسرين... تضجُّ بالأهوال!

- لربما وضعه الاجتماعي هو ما زاد الأمر تعقيدًا علينا.

قالت نسرين ذلك مفترضة، فأجابها أنور موافقًا: «أجل بلا شك، لو كان هنالك أقرباء له أو حتى أصدقاء قدامى لسهل الأمر بعض الشيء، سأعاني كثيرًا في استرجاعه إلى الحياة، وأكبر هواجسي هو الحقيقة المفزعة التي أراه يتخبط محاولًا الوصول إليها أمامي».

- المسكين! لقد فقد الوعي لمدة طويلة يا أنور، في أيام الكلية كان يدرِّسنا بروفيسور رشدي -رحمة الله عليه- وهو أحد أقدم علماء النفس في مصر، وأذكر أنه حدَّثنا عن موضوع الغيبوبة ذات

يوم في إحدى دردشاتنا معه، أذكر أنه قال إن الوعي لا يتحمل فكرة الموت، ويجد الغيبوبة فكرة مخيفة فيسعى لاختلاق وقائع جديدة ليصنع منها واقعًا يعيشه.

حكَّ أنور رسغ يده اليمنى بكفه اليسرى وهو يقول مستفسرًا: «ما الذي تعنيه بالضبط؟ أن الغيبوبة تمثِّل موتًا بالنسبة إلى الوعي؟».

- إلى حد ما أجل، حين يتوقف الجسم عن الشعور بالأشياء من حوله سيحاول اللاوعي أن يتصرف بشكل طبيعي كما لو كان الجسم نائمًا، لكن بعدما تطول المدة، تنتاب اللاوعي شكوكٌ بأن الجسم قد يكون ميتًا، وهي فكرة مرعبة بالنسبة إليه كما هي مرعبة بالنسبة إلى الإنسان الذي يسعى لمقاومة فكرة الموت والعيش أطول فترة ممكنة.

هز رأسه مستنتجًا وهو يكمل كلامها: «فيخترع واقعًا يعيشه لكي لا يشعر بغربة الموت».

قال ذلك وهو يشعل سيجارة، وبعد لحظات بادرته هي بالسؤال: «أخبرني يا أنور، هل شعرت يومًا وأنت تحلم أن الحلم الذي تراه واقعٌ حقيقيٌّ دون أن ينتابك أدنى شك أنه حلم؟».

- يحدث هذا دائمًا.

قال ذلك مشيرًا بسيجارته في الهواء.

- بالضبط، كما لو أن ما تراه في الحلم هو عين الحقيقة، ويحدث أيضًا أن تستشعر إشارات خفيَّة داخل الحلم أن ما تراه ليس حقيقة، كأن ترى نفسك تعثر على حقيبة مليئة بالأموال والذهب مثلًا، لكنك بشكل ما تشعر داخل الحلم أن ما تراه مجرد حلم.

قال ساخرًا: «وهذا يحدث معي دائمًا أيضًا».

- إن عقلك الباطن يبذل جهدًا كبيرًا ليبقى في ذلك الحلم ويحاول بكل ما أوتي من قوة أن يقنع عقلك بأنه حقيقة لكي لا تستيقظ، لكن شيئًا ما بداخلك يلمِّح لك أنه وهم، الأمر وما فيه أن اللاوعي عندك لن يستطيع خداع عقلك مطولًا وبخاصة أن عقلك متعود على هاته الخدع الرخيصة، وكل ما يحتاج إليه جرعة صغيرة من الإدراك تتمثل في منبه خارجي ما كأن تتقلب في الفراش، أو تسمع رنين المنبه أو صخبًا محيطًا بك، فيبدأ العقل بمعرفة ماهية ما يجري وأن ما تراه أضغاث أحلام وليس حقيقة.

- يحدث هذا في فترة النوم العادية في أثناء الليل أو في القيلولة.

عرَّج أنور بحديثه ليدعم قولها، فأسهبت: «أجل، فماذا لو غاب الإنسان عن الوعي لمدة عشرين عامًا؟ إلى أي درجة سيستطيع العقل أن يصمد يا ترى؟ إلى أي مدى سيستطيع أن يميِّز أن ما يراه وهم وليس حقيقة؟ وبخاصة أنه لن يكون قادرًا على استقبال أية منبهات خارجية طيلة فترة غيبوبته».

- أتقصدين...؟

قطَّب أنور حاجبيه متسائلًا، فردت عليه فورًا: «أجل، في هكذا حالات، لن يكون العقل قادرًا على تمييز ما هو حلم وما هو حقيقة حتى بعد أن يستفيق المريض من غيبوبته، أعتقد أنك في حاجة إلى مزيد من الوقت يا دكتور».

نظر أنور إلى الشارع من نافذة المطعم وراح يفكر..

ثم سمع نسرين تطرح عليه سؤالًا مدوِّيًا: «إذا كان عقلك طوال مدة الحلم يدرك تمامًا أنك في حقيقة بسبب خدعة اللاوعي هاته، فما يدريك أن واقعك الذي تعيشه الآن وأنت متأكد أنه واقع.. ما يدريك أنه ليس مجرد خدعة أخرى من عقلك الباطن؟ ما يدريك أنه ليس حلمًا آخر؟».

نظر إليها، وبدت الفكرة مرعبة في رأسه حين حاول تصورها، بينما ابتسمت بمكر وهي تقول: «هذا ما يحدث تمامًا مع مريضك يا أنور».

شرب بعض الماء وهو يصغي للطبيبة النفسية التي كان كلامها أغرب من الخيال بالنسبة إليه: «ثمة أناس قضوا مدة أقل بكثير من هاته ورغم ذلك سردوا وقائع مروِّعة صادفتهم في أثناء فترة الغيبوبة، وبخاصة أن المريض يفقد الذاكرة تمامًا خلال هاته الفترة كما تعلم، وفي حالة مريضنا هذا، أعتقد أن الصدمة القوية التي تعرَّض لها قبل

ثلاث سنوات من الحادث جعلت اللاوعي عنده يختلق أحداثًا وهمية خلال فترة غيبوبته، كأن عقله يريد صنع واقع جديد أو يسافر عبر الزمن لتغيير قدر ما. لكنه يصطدم بالنتيجة نفسها في النهاية، ليس فقط لأنه لا يستطيع تغيير القدر، بل أيضًا لأن هذا القدر الذي يراه في حلمه ليس إلا نتيجة حتمية يعرفها مسبقًا قبل دخوله في الغيبوبة حتى».

- والعقل الباطن لا يستطيع اختلاق نهايات جديدة، أليس كذلك؟

- مستحيل. أحيانًا ترى شخصًا ميتًا في حلم، شخصًا عزيزًا عليك تتمنى أن يستمر حلمك معه إلى أطول فترة ممكنة حيث تعود للعيش معه والتحدث إليه واستشعار وجوده، لكنك في الوقت نفسه لا تستطيع إلباسه صبغة الحياة كاملة في حلمك، ثمة شعور خفي يقول لك باستمرار إن هذا الشخص... ميت. ولذلك تكون مشاعرك حوله مضطربة داخل الحلم بين الشوق له لأنك لم تقابله لسنوات والاستغراب من وجوده على قيد الحياة، والخوف منه لأنه ميت حي...

كان أنور سيتحدث لكنها قطعت الكلام في حلقه وقاطعته قبل أن يتلفظ ما يريد قوله: «أجل أعرف ما ستقول. كل هذا يكون بالنسبة إلى إنسان نائم نومة عادية ويرى حلمًا عاديًّا، لكن لا تنسَ أننا هنا نتحدث عن مريض غاب في اللاوعي عشرين عامًا كاملة ولا تنسَ أيضًا أنه فاقد للذاكرة، وبالتالي لن تنتابه أية شكوك في إدراك الحقيقة حين

يرى أحلامًا هي في الواقع ذكريات من ماضيه الحقيقي، لن يشعر مثلًا أن ذلك الإنسان ميت إذا رآه مرة أخرى لأنه لا يذكر أصلًا أنه مات، بل ولا يتذكره أصلًا، إنه مجرد شخص ما في واقعه بالنسبة إليه، تمامًا مثلما تشعر أنت حيال هؤلاء الناس الجالسين في المطعم حولنا الآن مثلًا، إنهم مجرد بشر عاديين يسكنون هذا الكوكب بالنسبة إليك، كل واحد منهم يعيش حياته الخاصة ومشاعره وأفكاره التي لا تعرف عنها شيئًا، تخيل أنك فاقد للذاكرة ونائم لمدة عشرين عامًا، وأن كل هؤلاء الذين تراهم من حولك ليسوا إلا أشخاصًا وهميين بقيت وجوههم مترسخة في عقلك الباطن، ما يدريك أنني أنا أصلًا لست وهمًا؟ لعلِّي شخص ما مات في عالمك الحقيقي الذي نسيته، لعلَّنا أنا وأنت تعرضنا لحادث سير مميت فمتُّ أنا ودخلت أنت في غيبوبة فاقدًا للذاكرة وها أنت ذا تقابلني في أحلامك».

حدَّق أنور إلى عينيها لفترة...

ثم انفجرا ضاحكين وقال وهو يلقي بالمنديل على الطاولة: «أنت مجنونة يا نسرين، والحديث معك يصيبني بالجنون».

- لا، أنا أريد فقط أن أجعلك تشعر بما يشعر به مريضك، يجب أن تفهمه وتشعر به إذا كنت حقًّا تريد مساعدته.

أومأ برأسه إيجابًا..

وشعر بصداع غريب ينتابه فجأة.

جميل

كان علي يحمل سماعة الهاتف ويتحدث بأسف شديد، ثم وضعها ونظر إلى جميل قائلًا: «أجريت اتصالات على أعلى مستوى بين الدولتين يا جميل، حيث أبلغ الرئيس الأمريكي نظيره المصري بشكل رسمي عن الكارثة الجوية، وأنه قد شدَّد على التحرك الفوري في فتح تحقيق حول ملابسات الحادث الأليم لمعرفة أسبابه، ولكن الرئيس المصري بطبيعة الحال كان قد علم بسقوط الطائرة قبل اتصال الرئيس الأمريكي فقد كنت على تواصل مع وزير النقل، يقال أيضًا إن حوَّامات الجيش الأمريكي وفرق الإنقاذ قد وصلت بالفعل إلى مكان الحادث، أو بالأحرى المكان الذي يشتبَه في أن يكون مكان الحادث».

هزَّ جميل رأسه إيجابًا، ثم عاد للنظر إلى زكريا بشكٍّ وريبة وهو غير قادر على نسيان الجملة الأخيرة التي قالها له، بل وغير قادر على سؤاله عنها مجددًا لكي لا يكتشف المزيد من الغرائب التي أصبحت

تزكم أنفه في هذه الليلة، كان الصداع قد أصبح خطيرًا الآن وقد يستدعي تدخلًا طبيًّا، لكن جميل تحامل على نفسه وهو يفكِّر، لا شيء منطقيٌّ على الإطلاق.. سقوط الطائرة في حد ذاته أمر غير عادي وغير منطقي، قد يهاب الكثير من الناس ركوب الطائرة بسبب طبيعة تنقلها على ارتفاع آلاف الأقدام على سطح الأرض، وأغلبهم يفضِّلون التنقل عبر وسائل النقل البرية ويحاولون تجنب ركوب الطائرة قدر الإمكان، لكن ما لا يعلمه الكثيرون أن السفر عبر الطائرات هو الأكثر أمانًا من بين جميع وسائل النقل الأخرى، فمقارنة بحوادث القطارات والمجازر المرورية التي تحدث يوميًّا في الطرقات عبر حوادث السير، تعتبَر حوادث سقوط الطائرات أمرًا نادر الحدوث، ولذلك حين تقع كارثة طيران يجوب خبرها العالم بأسره، لأنه أمر جلل لا يحدث كل يوم.. ولأنه أيضًا أمر غير عادي بالمرَّة ويجب أن يكون له تفسير منطقي قاطع.

كان جميل يحدِّث نفسه بذلك كله، ثم ابتلع ريقه وابتلع معه الكثير من المرارة وراح يفكر بمزيد من الأسى والأسف.

لعل أغلب الركاب قبل الرحلة كانوا يتوسَّمون أن تكون الطائرة أكثر وسائل النقل أمنًا وأمانًا، وأن حوادث الطائرات قليلة لكنهم لم يكونوا على علم أنها... رحلتهم الأخيرة، مئتان وسبعة عشر راكبًا تبخرت أرواحهم بين الماء والسماء هكذا فجأة وبلا أيِّ إرهاصات أو مقدمات،

ما الذي حدث لك يا بوينغ سبعمئة وسبعة وستين حتى هويتِ فجأة بمَن عليك في قعر المحيط الأطلسي؟

قطع عمر زكريا موظف الاتصالات عليه خلوته وقال بصوته الكئيب الممتزج مع نبرة الجدية والتوتر: «سيد جميل، رئاسة الجمهورية على الخط، يريدون أخذ تقرير أوَّلي منك».

أومأ برأسه بأن نعم وتوجه بخطوات يائسة نحو سماعة الهاتف، كان يتوقع هكذا اتصال، فالرئيس المصري لن يكتفي أبدًا بسماع التقارير الأمريكية، سيُحب حتمًا أن يأخذ رأي خبراء مصريين في هذا الذي وقع.

رفع جميل السماعة وقال بصوت مبحوح كاد أن يكون عويلًا: «نعم».

- أستاذ جميل، مرحبًا، معك السكرتير العام لرئاسة الجمهورية، الرئيس يسأل، ما الذي حصل بالضبط؟ وما الذي توصلتم إليه من استنتاجات أوَّلية حول الحادث؟

تنهَّد جميل وهو يحمل سماعة الهاتف، وبإصبعيه السبابة والإبهام حك عينيه المغمضتين ثم قال على مضض: «الأمر أغرب مما تخيلتُ يا سيدي، هناك الكثير من الأشياء التي لا أراها عادية على الإطلاق، ربما يجدر بي أن أتحدث إلى الرئيس شخصيًّا».

قال جميل ذلك وهو يسأل نفسه إن كان فعلًا يعي ما يقول، ورغم أن الصداع كان على مشارف قتله، فقد كانت روحه معلَّقة بين ألف سؤال وسؤال، *هل سيعثرون على الصندوق الأسود؟ هل سيكون هناك ناجون؟ وليلى؟ أين ذهبت حتى الآن ولم تعد؟* أجابه محدِّثه في تلك الأثناء: «الرئيس يستمع بالفعل لهذه المكالمة يا أستاذ جميل».

- جيد، عند الساعة الواحدة وعشرين دقيقة أقلعت الطائرة من مطار جون كينيدي، وبما أن الكابتن تلقى إذنًا بالإقلاع فالمطار يتحمل مسؤوليته حيال ذلك إذ لا يتم منح هذا الإذن إلا إذا كان كل شيء على قدر من المثالية في الطائرة من جميع النواحي، لا خلل ولا عطب ولا نقص في الوقود ولا أي شيء مثيرٍ للريبة، وإلا لما كان سيسمح لها بالإقلاع أصلًا، بعد نصف ساعة من الطيران العادي والمثالي وفي ظروف عادية جدًّا ومثالية بدأت الأشياء غير العادية بالوقوع، وأولها اختفاء الطائرة من شاشة الرادار، الأمر الثاني غير الاعتيادي تمامًا في ظروف كهذه أن قائد الطائرة لم يرسل أي نداء استغاثة قبل الاختفاء، تشير الرادارات إلى أن الطائرة كانت على ارتفاع 33 ألف قدم لحظة اختفائها قبل أن يُفصَل الطيار الآلي في ظروف غامضة ولا ندري حتى الآن إن كان قد فُصِل من تلقاء نفسه أم أن الكابتن فصله. أرسلت فيما بعد رادارات الجيش الأمريكي بيانات تفيد بأن الطائرة كانت على ارتفاع 19 ألف قدم وفي ذلك الارتفاع

كانت محركات الطائرة مغلقة أيضًا، ولا ندري أيضًا إن كان ذلك قد حدث بفعل خلل تقني أم أن الكابتن اضطر إلى إغلاقها، بعد مطابقة التوقيت بين رادار برج المراقبة ورادار الجيش الأمريكي تبين لنا أن الوقت الذي استغرقته الطائرة في الهبوط من ارتفاع 33 ألف قدم إلى 19 ألف قدم كان 34 ثانية فقط، وهو أمر يستحيل أن يحدث في أي مناورة أو حركة بطائرة مدنية عادية، طائرات بوينغ لنقل الركاب ليست مهيَّأة تمامًا لهكذا هبوط بهكذا سرعة تقترب من كسر حاجز الصوت، ما يعني أن الذي وقع بين الارتفاعين لم يكن هبوطًا، بل سقوطًا حرًّا فقد فيه الكابتن السيطرة على الطائرة، لقد كانت سرعة هذا السقوط 22500 قدم في الدقيقة، لو أراد أي كابتن في أي طائرة مدنية أن يهوي بها عمدًا متعمِّدًا فيستحيل أن يصل إلى هذه السرعة في الانحدار...

قاطعه السكرتير متسائلًا بدهشة: «حتى لو أطفأ المحركات؟».

كان جميل سيجيبه، لكنه سمع صوت رئيس الجمهورية يجيبه وكان واضحًا أنه جالس بجانبه: «حتى لو أطفأ المحركات نعم».

تذكر جميل أن الرئيس قد درس الطيران من قبل، فراح يؤيِّد كلامه مضيفًا: «لا علاقة لإغلاق المحركات بسقوط الطائرة يا سيدي، فضلًا عن سقوطها بهذا المعدل غير الطبيعي، آخر ما أظهرته الطائرة في شاشات رادار الجيش الأمريكي هو ارتفاعها من 19 ألف قدم إلى 24

ألف قدم، لتهوي بعدها إلى 10 آلاف قدم مختفية نهائيًّا وإلى الأبد من شاشات الرادار، مما لا يدع أي مجال للشك أنها في قعر المحيط الأطلسي الآن».

- ألا نحتمل وجود ناجين؟

تساءل السكرتير بصوت مضطرب، فأجاب جميل بعد صمت وجيز: «لا لا. مع الأسف، لا أظن ذلك، في الواقع إذا كانت استنتاجاتي صحيحة فإن جميع مَن كان على متن الطائرة قد ماتوا قبل تحطُّمها أصلًا».

تبادل عمر وعلي النظرات، وقال السكرتير مستغربًا: «ما الذي تعنيه؟ ألم تقل إن الطائرة ارتفعت من 19 ألف قدم إلى 24 ألفًا؟ هذا يعني أن الكابتن كان يحاول إنقاذها».

ابتلع جميل ريقه، واضطر إلى أن يفصح أخيرًا عن استنتاجه المرعب الذي كان يخفيه عن علي منصور وعمر زكريا: «مبدئيًّا هذا صحيح، أتصور أن جميع مَن كانوا في قمرة القيادة قد حاربوا للدقيقة الأخيرة لكي يمنعوا وقوع الكارثة، لكن قدرة الجسم البشري لها حدود يا سيدي، قبل رحلة سقوط الطائرة، تحرَّك أنفها نحو الأسفل بزاوية أربعين درجة، قبل أن تهوي بسرعة الصوت نحو الأسفل، وبفعل تلك السرعة الهائلة لم يكن ركاب الطائرة يشعرون بأوزانهم، ثم فجأة وفي الثانية الرابعة والثلاثين يتغيَّر ارتفاع الطائرة بشكل حاد من الأسفل

إلى الأعلى، بفعل قوة الطرد المركزي، وفي تلك اللحظة بالذات أتصور أن جميع أجسام الركاب قد انضغطت نحو المقاعد ولم تتحمل الضغط الشديد».

صاح السكرتير بذهول على الهاتف كأنه نسي وجود رئيس جمهورية مصر العربية جالسًا إلى جانبه: «هل تقصد أن...».

قاطعه جميل: «أجل يا سيدي، لقد ارتفعت الطائرة من تلقاء نفسها من 19 ألفًا إلى 24 ألف قدم، لا أحد من ركابها في تلك اللحظة كان على قيد الحياة، كانت طائرة أشباح تحلِّق فوق المحيط الأطلسي».

سكت الجميع في تلك اللحظة، كأن المكان مقبرة فرعونية ترقد في صمت لآلاف السنين في وادي الملوك، وبرجفة حزينة سمع جميل رئيس الجمهورية يقول: «هل سيكون عزاؤنا الوحيد في شهداء الطائرة أنهم قد ماتوا قبل تحطُّمها وبالتالي لم يشعروا بمزيد من الألم؟ أي فظاعة حدثت لهؤلاء المساكين في هاته الليلة القبيحة! رحمة الله تغشاهم جميعًا».

وأقفل الخط..

وضع جميل السماعة، ونظر إلى دفتره الأسود، *أين ليلى بحق خالق هذا الجحيم؟*

أحمد

لم يعد المشهد من النافذة بهيجًا كما كان قبل لحظات، حيث تبددت أضواء نيويورك من تحتهم شيئًا فشيئًا حتى غطست الطائرة تمامًا في السواد والعتمة، كأنها فتيل شمعة ذائبة وهامت بهم بين الظلامين تحملها أجنحتها والرياح، وهناك في الأفق شعر أحمد كأن السماء تلتقي مع الماء مشكِّلة ستارًا مهيبًا من العدم، إنهم يحلِّقون فوق المحيط الأطلسي الكبير، أو على حد تعبير أحد المسافرين، إنهم في رعاية الله وحفظه الآن.

أغلق أحمد النافذة وقرر ألا يشغل باله كثيرًا بما يجري خارج الطائرة، وأن يندمج أكثر في مجريات الحياة داخلها، قهقهة بعض المسافرين وثرثرة بعضهم وهمسات البعض الآخر، وبينما كانت المضيفتان تقدِّمان لهم وجبة العشاء، اكتفى هو بطلب كوب من مشروب النعناع المهدِّئ حتى يساعده على نوم هادئ في ساعات

السفر القادمة، فليس في معدته مساحة لمزيد من الطعام، والتفت إلى يساره حيث كانت الشابة المصرية تتناول طعامها وقال لها مترددًا: «اعذريني يا آنسة، هل صعد المسافر النائم إلى الطائرة؟».

نظرت إليه مستغربة ولم يبدُ عليها أنها فهمت كلامه: «ممممسافر ننائم؟ ماذا تتقصد؟».

قالت ذلك وهي تبتلع الطعام المتبقي في فمها. شرب أحمد مزيدًا من مشروبه الدافئ الذي أشعره بمزيد من الارتياح وقال موضِّحًا: «قبل قليل حين كنا في قاعة الانتظار رأيتك توقظين أحد المسافرين من النوم، فأحببت أن أسألك إن كان قد لحق بالطائرة أم لا، فقد انتبهت منذ ركوبنا أن أحد المقاعد شاغر».

ابتسمت باستغراب وقالت وهي تغرز شوكتها في قطعة أخرى من الطعام: «لا أفهم ما الذي تتتتحدث عنه بالضبط يا سيدي، ولكني أؤكد لك أني لم أتحدث مع أحد في قققاعة الانتظار».

لم يعقِّب أحمد كثيرًا، لعلها نسيت ذلك.. فتح كتابه وراح يبحث عن الصفحة التي توقف فيها بينما هزت الفتاة رأسها ضاحكة بسخرية ثم التفتت إلى المرأة المسنَّة التي كانت تجلس على يسارها وقد همست في أذنها بشيء ما لم يتبيَّنه أحمد مع همهمات المسافرين وضحكاتهم، قبل أن تعود إلى وضعيتها في الجلوس وقالت متهكِّمة: «هذا غريب».

- غريب؟ لماذا غريب؟

- غريب فحسب.

بينما أطلق أحمد ضحكة خفيفة مستهترة وقرر أنه لا يريد الخوض في مزيد من التفاصيل مع هذه الفتاة المجنونة، وقفت مضيفة الطيران أمام مقاعدهم وراحت تساعدها في لملمة أواني العشاء، ثم قرر أن يصالحها، فليس من الحكمة أن يقضي ساعات السفر جالسًا قرب فتاة يحمل الضغينة لها، وبينما استمر في مراقبة المضيفة وهي تبتعد سأل أحمد الفتاة مرة أخرى: «أهي أمك؟».

نظرت إليه مرة أخرى وكانت نظراتها أكثر لطفًا وهي تشير له بأن نعم.

كانت تنظر إلى يديها، حيث كانت تلعب بخاتم صغير في إصبعها ففهم أحمد أنها مخطوبة وقال معتذرًا: «يبدو أنني أزعجتك بكثرة...».

قاطعته مبتسمة: «أوه لا بأس، لا عليك».

- مخطوبة إذن؟

ابتسمت بسمة لطيفة وقالت باستحياء وهي تومئ برأسها بأن نعم: «وعلى مشارف الزواج بحول الله. لقد جئت هنا إلى الولايات المتحدة الأمريكية لزيارة عمتي واستغللت الفرصة لشراء بعض المستلزمات، وأنت؟ يبدو أنك متزوج أيضًا؟». قالت ذلك وهي تشير إلى الخاتم في إصبعه.

نظر إليه وابتسم بدوره: «حسنًا أنا أيضًا على مشارف الزواج، يبدو أن هذه الطائرة تطير بنا نحو أحلامنا».

منحته المصرية الحسناء ضحكة لم يرَ أحمد أجمل منها حتى في أجمل أحلامه وأكثرها عذوبة، كانت تلك أول مرة يرى فيها أحمد إنسانة تضحك من وجنتيها.

- مَن سعيد الحظ إذن؟

- أوكنت ستعرفه لو أخبرتك عنه؟ ثمة في مصر تسعة وستون مليون نسمة.

- وما يدريك؟ لعلِّي أعرفه. أريد أن أحسده.

ضحكت مرة أخرى وقالت مستدركة محاوِلة إخفاء ضحكتها باستحياء: «خطيبي أجمل مخلوق في العالم، إنه طبيب ماهر وإنسان رائع، لم يتوقف يومًا عن حبي ودعمي والخوف عليَّ، يعاملني كأخت وصديقة ويتحمل نكدي في كثير من المرات».

هز أحمد رأسه وقال مستطردًا: «وإن لكن مع النكد لحكاية.. إنني أغبطه حقًّا فهو... محظوظ بك». تثاءب وهو يقول تلك الكلمات، وانتابته نوبة نعاس أثقلت عينيه.

نظر إلى ساعته وتذكر أنها معطَّلة، فرفع عينيه الناعستين إلى جليسته الجميلة التي كانت تساعد أمها لكي تنام: «كم الساعة؟».

- الواحدة وأربعون دقيقة.

قالت ذلك وهي تنظر إلى ساعة يدها.

تراقص رأسه يمينًا وشمالًا باحثًا عن أريح وضعية للنوم، لم يكن يقوى على حل عينيه، وبصعوبة بالغة رفع يده ليطفئ الضوء الخافت فوق رأسه.

وفي ظلام الطائرة بعد انقطاع الضوء الخافت رأى الثامنة وإحدى وأربعين دقيقة على معصم يده اليمنى...

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

أنور

تلاطمت الأمواج بين عينيه وهي ترغي وتزبد متوعِّدة رمال الشاطئ بالهلاك، والشاطئ يحويها في ثبات عجيب كصدر الجد الرحب مبتسمًا، يتراجع الماء إلى الوراء وتقدُم موجة عملاقة أخرى قادمة بهيبة جبَّارة فتنطح رمال الشاطئ وصخوره المتناثرة هنا وهناك، لكنها سرعان ما تتبدد فلا يبقى منها إلا الزبد الأبيض الصافي الذي يكاد بياضه يضيء في تلك الليلة الهادئة رغم صخب الأمواج المتلاحقة.

ضم أنور قدميه إلى بعضهما بعضًا داخل تلك البطانية وهو يراقب الأمواج وحركتها، فقد سرى البرد في جلده كالنمل وشعر بالامتنان للبطانية الصوف حتى كاد يكلِّمها شاكرًا.

وغير بعيد عنه، جلست صديقة طفولته، البروفيسورة نسرين أبو موسى التي تلحَّفت هي الأخرى ببطانية رمادية عظيمة وجلبت معها كوبين من الشراب الدافئ المنعش وبسخريتها المعهودة قالت متهكمة:

«أراك غارقًا في النظر نحو البحر يا دكتور أنور، هل استعصت عليك قضية مريضك الملتحي حتى صرت تريد ترك مهنة الطب وممارسة الملاحة والصيد البحري؟».

ابتسم ناظرًا إليها وهو بالكاد يستطيع تمييز ملامحها في الظلام: «إذا كانت ممارسة الصيد ستساعد على حل معضلة هذا المريض فلمَ لا؟».

مد يده في تلك الأثناء إلى جيب سترته الداخلية وأخرج سيجارة ثم التقط قداحته من فوق الطاولة وهو يضيف متحدثًا: «كل شيء يا نسرين له علاقة بالأحلام، ولعل هذا هو أهم سبب جعلني أستعين بك في هذه الحالة المستعصية، إنني أبحث عن خيط حقيقة وسط كومة من القش المعشِّش في رأسه».

ارتشفت بعضًا من المشروب الدافئ الذي تألف من القرنفل والنعناع وبعض العسل المغليِّ في الماء ثم قالت وهي تعيد الكوب إلى الطاولة: «ولمَ لا تقول إن المشكلة الحقيقية تكمن في ذلك العشاش الذي في رأسه يا أنور؟ الذاكرة هي اللعبة التي عليك أن تركز عليها، وهي معضلتنا الحقيقية في هذه القصة كلها. إذا استطعنا أن نساعده على استعادة ذاكرته فسيعبِّد الطريق لنا بعدها في فهم بقية أطراف المعادلة».

قال ساخرًا منها: «بدأتِ تتحدثين كالعلميين أخيرًا؟ المعادلة؟».

تفجرت ضاحكة وطار صوت قهقهتها في أرجاء الشاطئ كخيط من الحرير الناعم.

- أتذكرين حين تحدثنا عن الأحلام آخر مرة؟ أخبرتِني أن الإنسان يستحيل أن يكون قادرًا على اختراع نهايات جديدة لذكرياته في الأحلام ما دامت نهاياتها الحقيقية مترسخة في عقله الباطن الذي هو مصدر الأحلام، هل الأمر نفسه ينطبق على الناس؟ أعني.. يستحيل أن يخترع العقل وجوهًا جديدة في الأحلام، صح؟

هزت رأسها مستوعبة: «أجل يستحيل ذلك، ودائمًا أقول لطلبتي في الكلية إن ذلك من حكمة الله -عز وجل- أنه الخالق الوحيد، وأن عقولنا عاجزة عن الخلق حتى في الخيال، إذ إن كل الناس الذين نراهم في أحلامنا ما هم إلا أناس حقيقيون رأيناهم بشكل أو بآخر في عالمنا الحقيقي، وطُبعت أشكالهم في عقلنا الباطن، قد نعجز عن تذكر من يكونون وأين رأيناهم من قبل لكنهم بشكل أو بآخر مروا علينا في حياتنا اليومية، وحين نغيب في غياهب النوم نراهم في أحلامنا».

كانت بقعة اللهب تأكل التبغ ولفافة الورق من حوله في سيجارة أنور حين أخذ نفسًا آخر منها، ثم تنهد باعثًا الدخان من أعماقه وهو يقول: «لقد سافرنا إلى ما وراء أعالي البحار لكي نساعد هذا المريض يا نسرين، وفي كل مرة أفكر فيها حياله أتساءل، هل ترانا نحرز تقدمًا؟».

- لم لا يا أنور؟ لم لا؟ (قالت ذلك وهي تعتدل في جلستها وتضع يدها على يده مشجعة) عشرون عامًا ليست بالفترة الصغيرة يا أنور، إنها عقدان من الزمن، أتستطيع أن تتخيل؟ الأطفال الرضَّع الذين وُلدوا يوم الحادث أصبحوا اليوم شبانًا وشابَّات في الكلية.

عم الصمت بينهما للحظات، قبل أن يكسر حاجزه متسائلًا: «ماذا عن الزمن في الأحلام؟ إنه معضلة أخرى، أليس كذلك؟».

- الزمن معضلة حتى في عالم الحقيقة يا أنور، فما بالك به في الأحلام؟ يقال إن الزمن داخل الحلم يسير أبطأ منه في عالم الحقيقة.

تكلَّف ضحكة ساخرة أخرى وهو يقول: «الآن ستبدأ البروفيسورة أبو موسى في إلقاء محاضرة حول نظرية النسبية».

ومرة أخرى انفجرت ضاحكة، ثم شربت بعضًا من مشروبها المنشِّط وقالت: «الأمر له علاقة بنظرية النسبية بالفعل، فبعض الدراسات تقول إن مدة الحلم تستغرق في الواقع ثماني إلى سبع ثوانٍ، والبعض يقول خمس دقائق، يعيش فيها الإنسان أحداثًا مدتها ساعات، وبعض الناس أفادوا بأن أحلامهم تستمر لسنوات، لكنهم في الواقع ناموا عشية أو ضحاها. والعكس صحيح أيضًا لكنه إعجازيٌّ، فأصحاب الكهف لبثوا في كهفهم أكثر من ثلاثمئة عام ولمَّا استيقظوا

شعروا أنهم لم يلبثوا إلا يومًا أو بعض يوم. ويحدث أحيانًا أن ينام الإنسان وهو في قمة تعبه فيشعر أنه لم ينَم إلا ساعة أو ساعتين بينما في الواقع نام ست أو سبع ساعات كاملة، الأمر أشبه بأن تجلس قبالة الشاشة لمشاهدة فيلم مدته ساعة ونصف، لكن أحداث هذا الفيلم تمتد لأيام وسنوات أحيانًا فتعيش في ساعة ونصف كل المراحل العمرية التي مر بها البطل. ولذلك لا يمكنك تحديد الزمن داخل الحلم، فلو تسنى لك أن تنظر إلى الساعة داخل الحلم ستجدها لا تعمل، لأن الزمن داخل الحلم لا يسير بالوتيرة نفسها التي هو عليها في الواقع المُعاش...».

بينما تتحدث قال وهو غاطس تمامًا في أفكاره: «واو! كلامك مثير للدهشة، إذا توقفت الساعة في يدي يومًا بسبب البطارية فسأصب سطلًا من الماء على رأسي لأستيقظ».

ابتسمت له وقالت مصحِّحة: «ومن قال إنك ستستيقظ بهاته الطريقة؟ هل سبق لك أن حلمت بنفسك تسقط من مكان مرتفع؟».

- أجل..

هز رأسه إيجابًا وهو يضيف: «يحدث ذلك معي بشكل متكرر، ومباشرة بعدما أرى ذلك الحلم أستيقظ على الفور».

قالت له وهي تنظر إلى عينيه مباشرة: «إن ذلك الحلم تحديدًا هو من اختراع العقل لكي يجعل الجسم يستيقظ، فحين يستشعر العقل

أن أحد أعضاء الجسم لا يقوم بوظيفته على نحو طبيعي بسبب النوم، يخترع ذلك الحلم لينبِّه الجسم فيستيقظ على الفور ويستعيد وظائفه».

تثاءب أنور في تلك الأثناء وأخرج هاتفه من جيبه، نظر إلى الساعة وكانت تشير إلى الثالثة بعد منتصف الليل، تبقى قرابة الساعتين على موعد صلاة الفجر حسب التوقيت المحلي للمنطقة التي كانوا فيها، التي كان اسمها مكتوبًا في خانة الموقع على شاشة هاتفه.

«جـزيـرةُ نـانـتـوكـيـت»...

جميل

كان جميل يحاول ضبط أفكاره في نسيج متماسك وينظر بريبة وشك إلى عمر زكريا الذي هتف بصوته المنبِّه: «ثمة مكالمة هاتفية مستعجلة وغاية في السرية من طيَّار أردني يقود الرحلة رقم 262 التابعة للملكية الأردنية، يقول إنه يريد الحديث إليكم سيدي».

قال جميل على مضض وقد هم بمطالعة أوراق دفتره: «ما الذي قد يريده منا طيَّار أردني الآن؟ حسنًا مرِّره على الخط».

بينما حمل سماعته التي بجانبه، حمل علي سماعته وهو يصغي باهتمام بالغ، وجاء الصوت متقطعًا محشرجًا وقال عمر زكريا إنه يعمل على تحسين جودته.

- مرحبًا أتتت أتتت خششششش أتسمعني؟ لقد طلب منا.... خششششش خششششش أن... خششششش أتسمعني؟

- أسمعك جيدًا سيد رضوان، أكمل حديثك رجاءً.

- لقد طلبت منا خششششتتت ششش السلطات الأمريكية أن نتوخى الحذر نتيجة اختفاء خشششش طائرة مصرية من شاشات الرادار.

- أجل، لقد أبلغتنا السلطات الأمريكية بذلك أيضًا.

قال جميل ذلك بسأم وكاد يلقي السماعة من يده متذمرًا.. *اتصال لا جدوى منه سوى السؤال والاستفسار*، لكن الطيَّار الأردني فجَّر على مسمعيه قنبلة من العيار الثقيل: «لقد خششششتششششتشش مررنا بالمسار خششتتششش نفسه الذي مرت به الطائرة المصرية المنكوبة سيدي خششش، الواقع أن مرافقي الطيَّار ليث النجار خششش قد رأى قبل اختفاء طائرتكم شيئًا غريبًا في الجو خششش..».

خفق قلب جميل بقوة، وأعاد وضع السماعة بالقرب من أذنه حتى كاد يحشر أذن السماعة في ثقب أذنه وهو يستمع باهتمام بالغ: «ولذلك.. آثرت التواصل معكم خشششششتتت، قبل أكثر من ست ساعات تقريبًا مررنا بمسار الطائرة المصرية نفسه خشششش، كل شيء خششش كان عاديًّا إلى أن سمعت مساعدي ليث يصرخ ويكبِّر، وقد كان مصفرَّ الوجه مرعوبًا خششش.. أخبرني أنه رأى كتلة من اللهب تمرُّ أسفل طائرتنا وأنها كادت أن تصطدم بنا خشششش أتسمعني سيدي؟».

كان علي منصور وعمر زكريا يصغيان باهتمام بالغ لكلام الطيار بينما يدوِّن جميل كل تفصيلة على دفتره، ووصل إلى آخر التفاصيل التي ذكرها الطيَّار، لكنه انتبه لشيء غريب جدًّا: «ما الذي قلته سيدي؟ منذ متى مررت بمكان اختفاء الطائرة؟».

قال ذلك وهو ينظر إلى علي منصور متسائلًا محاولًا استيعاب ما قاله الطيَّار الأردني، الذي راح يكرر المعلومة بصوت متقطع: «ست ساعات سيد جميل».

وضع جميل القلم وتبدَّل لون وجهه وقد تحول ما تبقى من ضياء بين عينيه إلى ظلام.. *هل قال ست ساعات؟ أليس من المفترض أن...*

نظر إلى السماء من نافذة مكتبه، لم يتغيَّر بها شيء، لا يزال الليل مطبِقًا.

ألقى بالسماعة على المكتب في تلك اللحظة وحمل دفتره وراح يقلِّب صفحاته، ثم التقط قطعة طبشور وتوجَّه بها نحو سبورة قديمة كانت معلَّقة في أحد أركان مكتبه، وكتب: **SU – GAP 3110217**

ثم غير بعيد عنها كتب: 22

كان علي وزكريا يراقبانه دون أن يقول أحدٌ شيئًا.

قلب مزيدًا من أوراق دفتره حتى وصل إلى الورقة الأولى، تاريخ تصنيع الطائرة كان سبتمبر 1989، تحطمت صباح اليوم الأخير من أكتوبر 1999، عشر سنوات... لاحت الفتاة الصغيرة الغريبة التي

لمحها مبلَّلة الثياب بين عينيه، نظر إلى الخريطة التي جلبها معه من البيت، العلامة الغريبة التي وجدها على الخريطة مطابقة تمامًا لموقع اختفاء الطائرة، إف 22 هو المدرج الذي أقلعت منه الطائرة، الحرف اللاتيني الناقص في تلك اللافتة الملعونة كان حرف F والأغرب من ذلك كله، تلك الشيفرة الغريبة التي رآها في لوحة سيارة الرولز رويس السوداء.. SU – GAP 3110217 حدَّق إليها جيدًا بعدما كتبها بالطبشور على السبورة، الحروف الخمسة الأولى هي الرقم التسلسلي للطائرة، SU-GAP، آخر ثلاثة أرقام.. 217 عدد *الضحايا؟ ماذا عن الأرقام الثلاثة المتبقية في الوسط؟*

- سيد جميل، ما الذي تفعله؟

- مستحيل أن يكون هذا كله حقيقة يا سيد علي منصور! أريد رؤية ليلى فورًا.

قال ذلك وهو يستمر في التحديق إلى الأرقام الأربعة الوسطى 3110.. *إنها... تاريخ اليوم؟ ثمة أحد ما يلعب معي لعبة قذرة، كل هاته الإشارات التي صادفتها في الطريق نحو المطار، الأجواء الغريبة الغامضة والمطار الخالي.. سيارة الرولز رويس السوداء والهزة.. الهزة الأرضية؟ إنني أحاول أن أتذكر أين كنت قبل الآن أو قبل اليوم فلا أستطيع، ما الذي كنت أعيشه وما كانت حياتي قبل المكالمة الهاتفية التي وصلت إليَّ من ليلى، متى نمت وأين نمت؟ من أنا؟ وما الذي أفعله هنا؟*

- سيد جميل، مَن ليلى؟

طار عقل جميل الذي زمجر بغضب: «ليلى المحمدي مساعدتي في مكتب التحقيقات، لقد درسنا معًا عند الأستاذ يسري حامد الذي تقاعد مؤخرًا وترك منصبه لي».

تبادل علي وعمر النظرات باستغراب شديد وبدا أن لا أحد منهما يدري ما الذي يتحدث عنه جميل.

لقد كانت سيارة الرولز رويس الفاخرة تجسيدًا لمحرك الطائرة، حيث من المعروف أن هذه الشركة البريطانية من أبرز الشركات المنتِجة لمحركات الطائرات، أجل لم يكن العيب في المحرك، لم يكن العيب في المحرك فقد كان في كامل قوته وذا جودة ممتازة تمامًا كتلك السيارة الفاخرة النظيفة، والفتاة... الفتاة الصغيرة المبلَّلة هي الطائرة؟ أجل.. قال ذلك وهو ينظر إلى صورة الطائرة المفقودة أمام عينيه التي كانت بيضاء تمامًا مع شريط أحمر كستنائيٍّ.

- ليس هنالك موظَّفة في المطار تحمل هذا الاسم سيد جميل، ولم يكن هنالك محقق يحمل اسم يسري حامد، إنك تهذي، فهل أنت بخير؟

قال علي منصور ذلك وهو يضع يده على كتف جميل، فدار إليه هذا الأخير ولكمه بقوة حتى أسقطه أرضًا بينما أشهر عمر زكريا مسدسه في وجه جميل الذي صرخ كالمجنون.

- لا تلمسني.. إياكما أن يقترب أحد مني.. أهذه خدعة أم مقلب أم ماذا؟ كيف لطائرة أن تختفي في نيويورك عند الساعة الواحدة وخمسين دقيقة بعد منتصف الليل وعند الساعة الثانية والربع بعد منتصف الليل بتوقيت القاهرة؟ هل تريد أن تقول لي إن الفارق الزمني بين القاهرة ونيويورك نصف ساعة فقط؟

لهث جميل وهو يشعر بتزايد حدة الصداع..

- إن هذا.. آه.. آه.. آآه.. أغرب من الخيال ولكن.. الفارق الزمني بين القاهرة ونيويورك آآه.. آآه.. سبع ساعات كاملة وليس نصف ساعة، يجب أن نكون في وضح النهار بينما يجري الطيار الأردني مكالمته معنا ويقول إنه مر بمكان اختفاء الطائرة قبل قرابة ست ساعات كاملة. لا يمكن للساعة أن تخطئ مرتين يا سيد علي، لا يمكن للساعة أن تخطئ مرتين. آسف لأني ضربتك ولكن على أحدنا أن يستفيق من هذا الحلم المزعج.

تضاعف الصداع حتى شعر أن قواه خارت. ولم يجبه علي منصور بأي كلمة بل اكتفى بالصمت واللهاث بينما ينبعث ذلك البخار البارد من فمه على نحو غامض.

وأما هذا البخار الغريب فتلك حكاية أخرى، ما الذي يحدث في هذه الليلة بحق خالق الجحيم وأهوالها؟ تنهَّد وهو يحاول تذكر الأحداث التي حصلت معه وربطها ببعض لكي يصل إلى نتيجة منطقية.

قبل قرابة الساعتين تلقى مكالمة هاتفية من ليلى تقول فيها إن طائرة مصرية اختفت. كانت الساعة وقتها الثانية والنصف بعد منتصف الليل، وقتها قالت ليلى إن الطائرة اختفت قبل أربعين دقيقة تقريبًا، ويستحيل أن تختفي طائرة في نيويورك في الوقت نفسه، فالفارق الزمني بين نيويورك والقاهرة سبع ساعات على الأقل، فإذا كانت الطائرة قد اختفت عند الساعة 01:50 بتوقيت شرق الولايات المتحدة الأمريكية، فالساعة يجب أن تكون التاسعة إلا عشر دقائق صباحًا في القاهرة، أي بعد سبع ساعات كاملة، وهذه هي الغلطة الأولى للساعة، بينما كانت الغلطة الثانية هي توقيت اتصال الطيار، فلو كان الطيار قد مرَّ بمكان اختفاء الطائرة قبل ست ساعات فإنه من المفترض أن يكون الآن فوق الأجواء المصرية في وضح النهار بينما لا تزال الظلمة حالكة، ولذلك كان اتصاله القطرة التي أفاضت الكأس، فالساعة كما قال جميل لا يمكن أن تخطئ مرتين، ثم إن قصة اختفاء ليلى كانت تزيد من الوضع صعوبة عليه، إن لم تكن ليلى موجودة فإن هذا كله غير موجود، لأنها هي التي اتصلت به وأيقظته من نومه، مرة أخرى حاول تذكُّر أي شيء قبل نومته تلك فلم يستطع، لم يستطع تذكر أين نام وماذا كان يفعل قبل النوم، كأن تلك المكالمة التي وصلت إليه من ليلى كانت أول حدث في حياته كلها.. وتذكر أنه لم يرَ أي موظف في المطار يتحدث إلى ليلى منذ أن وصل إلى هنا، لقد كان الوحيد الذي يكلمها طيلة الوقت. نظر من نافذة المطار مرة أخرى،

إلى فناء الطائرات في الأسفل، وكان خاليًا تمامًا هذه المرة، كأن كل الطائرات التي رآها مركونة فيه عند وصوله قد تبخرت في الهواء، لم يكن هناك شيء على الإطلاق إلا نافذة مفتوحة تداعب ستائرها رياح أكتوبر الأخيرة.

- أنفك ينزف يا جميل.

دار مرعوبًا وهو يستمع لصوتها قادمًا من خلفه، إنها هي.. بطقمها الكلاسيكي وربطة شعرها الحمراء.

- ليلى؟

قال ذلك وهو يتحسس أنفه بأصابعه ثم نظر إليها، كيف *لم أنتبه لهذا النزيف الحاد؟*

نظر إلى عمر وعلي ثم أشار إليها بسبابته، وقبل أن يقول كلمة واحدة بادرت هي بالكلام: «عبثًا تتحاول. إنهما لا يريانني، أنا شبح بالنسبة إليهما».

زلزلت تلك الكلمات كيانه وهو ينظر برعب محاولًا ربط كلامها ببقية أحداث الليلة: «ما الذي تعنينه؟ ألم تخبريني حين وصلت أنهم في انتظاري في الأعلى؟».

الأعلى؟ يا إلهي الرحيم هذا غير ممكن، أيعقل أني؟! طاش الدم في عقله وشعر بالجنون ينتابه وقد جحظت عيناه في لحظة بدأ يدرك فيها كل شيء.

اغرورقت عيناها بالدموع الدامية وقالت: «إنك نائم على متن الطائرة في الكرسي المجاور لي، وكل ما تراه الآن أضغاث أحلام، أنت أملنا الأخير لإنقاذ الرحلة 990، لإنقاذنا جميعًا، لإنقاذي أنا وأمي، وعمر وعلي وبقية ركاب الطائرة. يمكنك اللحاق بنا، يمكنك الاستيقاظ الآن من نومك والتوجه إلى قمرة القيادة لمنع وقوع الأسوأ، إننا نتوجه نحو المحيط الأطلسي بسرعة الصوت يا جميل».

تحرَّكت الدنيا تحت قدميه وشعر أنه فقاعة ماء تنفجر في الهواء وهو يستوعب الحقائق أخيرًا.

هذا صحيح... هذا صحيح.. يا إلهي.. لقد كنت في قاعة الانتظار في مطار جون إف كيندي قبل نحو ساعة، كادت أن تفوتني الرحلة لولا... لولا... رفع رأسه مجددًا ولمح ليلى وهي تنظر إليه صامتة مثل الجثة.. *هذه الفتاة.. رأيتها في المطار، هي من أيقظتني، عمر وعلي هما راكبان يجلسان في المقعد الموالي لمقعدي، لا أصدق.. أنا نائم.. كل هذا الذي يجري من حولي حلم.. أنا نائم الآن على متن الطائرة! يا إلهي ليس لدي الكثير من الوقت.*

ركض نحو النافذة، صرخ علي وعمر في الوقت نفسه: «ما الذي تفعله؟»، وأمام دهشتهما ألقى جميل بنفسه من فوق، وراح يخمن بينما تتراقص جثته في الهواء متوجهة في سقوط حر شاقولي نحو الأسفل وجسمه مقلوب رأسًا على عقب كأنه طفل صغير رفعته القابلة من قدميه لحظة ولادته.

إذا كانت توقعاتي صحيحة يجب أن أخدع عقلي كي يستيقظ، ليس هنالك إلا طريقة واحدة لفعل ذلك.. السقوط من مكان مرتفع، إنها خدعة يستعملها العقل لمنع القلب من التوقف عن العمل في أثناء النوم وذلك باختراع حلم يسقط فيه من مكان مرتفع لكي يستعيد وعيه..
توجه بعينيه نحو الأسفل ونظر إلى الأرض التي كانت تبتلعه نحوها بجاذبية نيوتن المهولة، وفي اللحظة الأخيرة قبل ارتطامه وبينما أغلق عينيه لكي يتفادى تلك اللحظة القاسية تنفس بقوة وانتفض من مكانه وحزام الأمان يربطه بمقعده المائل على نحو مثير للغثيان.

كان خفيفًا كالريشة بالكاد يستطيع الشعور بوزنه، لقد استعاد وعيه أخيرًا بعدما ارتطم رأسه بقوة بنافذة الطائرة حين كان نائمًا، وفهم سبب ذلك الصداع الرهيب...

المسافر المجهول

كانت الضربة التي تلقاها على رأسه قوية للغاية، الهيكل الخارجي للطائرة يتداعى في صخب مرعب كأن ثمة ملايين الأيادي التي تهز كل شبر منه من الخارج، وبينما أقنعة الأكسجين تتأرجح فوق المقاعد التي تنبعث من بعضها أصوات الصياح والتهليل والابتهالات وبكاء الذعر، غرق البعض الآخر منها في صمت القبور، المصابيح الداخلية تضيء تارة وتنطفئ تارة أخرى على نحو عشوائي، والمضيفة التي كانت تلملم أواني العشاء كانت غارقة في بقعة من الدم، وبدا واضحًا من شكلها أنها ارتطمت بسقف الطائرة بشكل عنيف أرداها صريعة على الفور، وعلى المقعد الذي عن يمينه كانت الحسناء المصرية النائمة مغمضة العينين باردة الوجنتين شاحبة الملامح وقد انبعثت ساقية من الدم من فمها، كانت الطائرة تهتز بشكل مرعب وهي مائلة للأمام على نحو ينبئ بالخطر وجرس الإنذار يوشك أن يثقب طبلة أذنه، الضغط شديد للغاية حتى إنه حرَّك يده بصعوبة بالغة وهو

يشعر أن الكرسي الذي يجلس عليه تحول إلى ثقب أسود يريد أن يبتلعه إلى الداخل. كانت حركاته أشبه برجل يريد الركض تحت الماء، وبصعوبة بالغة حرَّر حزام الأمان وقام عن كرسيه وهو يمسك به، وفي المقعدين المجاورين له رأى علي منصور وعمر زكريا صريعين، لقد تمكن من تذكرهما أخيرًا، كان يصغي لهما وهما يتحدثان حول اسم الطائرة وطرازها في اللحظات الأخيرة التي سبقت الركوب على متنها.. *لا بد.. لا بد من فعل شيء.. محاولة أخيرة.. هذه الطائرة تستحق محاولة أخيرة، لكن ما الذي حدث هنا؟ لقد كانت الرحلة مريحة ممتعة والإقلاع كان جميّلا والمشاهد من النافذة كانت خلَّابة، ضحكات المسافرين وهمساتهم وصوت بعض الأطفال هنا وهناك، رائحة طعام العشاء اللذيذة وشراب النعناع الدافئ المهدِّئ.. كيف أصبح المكان جهنميًّا موحشًا هكذا؟ الإضاءة شبه منعدمة والأرواح باهتة والأجساد تتلاشى وسرعة السقوط مرعبة والرب وحده يعلم ما الذي يحدث في قمرة القيادة..* كان يتشبث بالكرسي تلو الآخر وهو يسير بأسرع ما يمكنه نحو الأمام، وتلاعبت أمعاؤه فغلبه الغثيان لكنه تماسك واستمر في التقدم، بعض الركاب كانوا يصرخون وبعضهم كان بلا حراك، وتساءل إن كانوا موتى أو مغمى عليهم من رعب هذا الذي يجري، وكان بعضهم ينظر إليه باكيًا مذعورًا بملامح الأمل الأخير والاستجداء والخوف، استمر في التقدم وهو ينظر إلى المشاهد المروعة والمزيج الكريه من روائح القيء والدماء والحريق.. كان يتحرك بصعوبة

ويشعر بالألم مع كل ارتطام وصدمة، يشعر بالحزن والخوف والذعر والشجاعة والغثيان، لكنه لا يستطيع الشعور بوزن جسمه، كأنه قطعة قطن متحركة بخمس حواس.

تجاوز منطقة الدرجة الأولى أخيرًا ووصل إلى باب قمرة القيادة، ولكي يستطيع فتحه اضطر إلى إفلات يده من المقعد الأخير الذي كان متشبثًا به، المضيفة الثانية كانت جثة هامدة أمام الباب وهي تمسك بسماعة الهاتف في يدها.. ارتطم بالباب بقوة بعدما أفلت المقعد حيث انحدر بسرعة من مكان وقوفه نحو الباب كأنه ينزل راكضًا من منحدر خطير، فتح الباب بصعوبة ودخل قمرة القيادة وهو يردد: «توكلت على الله.. توكلت على الله».

ثم وبسرعة خاطفة ارتمى في المقعد الثاني حيث يجلس مساعد الطيار وهو يلهث برعب شديد مرددًا: «توكلت على الله.. توكلت على الله».

أمسك عصا القيادة، وشدَّها بقوة نحو الأعلى لكن دون نتيجة، كانت مستعصية عليه تأبى أن تتحرك، حاول معها بأقصى قوته لكن لا جدوى فبالكاد استطاع رفعها، زجاج النوافذ الأمامية كان مشقوقًا ولم يستطع رؤية شيء منها عدا سواد المحيط الأطلسي المتماوج من تحتهم، فبلغ قلبه حنجرته من الرعب، لقد كان طيلة حياته يخشى السباحة في الشواطئ العميقة، وها هو الآن يجد نفسه متوجهًا بسرعة

الصوت نحو قعر المحيط الأطلسي الجبار في ليلة قليلة النجوم كثيرة الغيوم عظيمة الكوارث.

- توكلت على الله.. توكلت على الله.

ردد مرة أخرى ليتغلب على الخوف في قلبه وشد عصا القيادة بقوة نحو الأعلى في محاولة أخرى، وفي تلك الأثناء ألقى نظرة نحو النافذة الجانبية التي كانت مضيئة وحارَّة كأن شمسًا متوهجة تطارد الطائرة من الخلف.

- توكلت على الله.. توكلت على الله.

بينما كان يحاول إنقاذ الطائرة بكل ما أوتي من قوة وعزيمة والعرق البارد يتصبب من كل مسامات جلده، دخل أحد ما إلى قمرة القيادة، ورغم الاهتزازات العنيفة وميلان الطائرة وسرعة سقوطها كان يمشي واثق الخطوة ملكًا، التفت جميل إليه في ذعر حين انتبه أنه اتخذ مكانه في المقعد المجاور لمقعده، مقعد الطيار الرئيسي، وهو يقول بدهشة: «ما هذا؟ ما الذي يحدث؟ هل أطفأت المحركات؟».

- توكلت على الله.. توكلت على الله.

كان هذا رد جميل الوحيد، الجملة الوحيدة التي استطاع ترديدها في ذلك الموقف الهائل كأنه في سطح ناطحة سحاب تميل به ساقطة نحو الأرض.

كان الشخص الذي جلس بجانبه مجروحًا في رأسه، أسود العينين، كئيبًا، ذا ملامح عربية خالصة.

- من أنت؟

قالها جميل مذهولًا، إذ لم يتوقع أن هناك أحدًا غيره في الطائرة قادر على الحركة.

- أحمد.. اسمي أحمد. لماذا المحركات لا تعمل؟ راقب المحركات.

- ما الذي حصل؟ ما الذي حصل للطائرة يا أحمد؟

قال جميل ذلك وهو يحاول مراقبة المحركات كما طلب منه، فأجابه وهو يتفقد عصا القيادة التي أمامه: «راقب المحركات.. راقب المحركات وشد معي. لقد تعرضت طائرتنا لهجوم بصواريخ حرارية، ذيل الطائرة مصاب إصابة بليغة ولا أعتقد أننا قادرون على التحليق لمسافة عالية بعد الآن، لقد استهدفونا.. استهدفوا علماءنا وضباطنا.. استهدفوا مستقبلنا يا جميل وغدروا بنا».

جميل؟ كيف عرف اسمي؟

- شد معي.. شد معي.

ردد أحمد وهو يصيح بأعلى صوته. أمسك كل واحد من الطيَّارين الشجاعين عصا القيادة أمام كرسيه وراحا يحاربان الموت معًا في جولة أخيرة على متن طائرة متهتكة الهيكل محروقة الذيل تهوي بسرعة الصوت نحو المحيط الأطلسي، حاولا بكل ما أوتيا من قوة

أن يرفعا الطائرة مجددًا ويعيدا السيطرة عليها وكان أملهما الأخير هبوطًا إعجازيًّا آمنًا فوق الماء والخروج بأقل الخسائر الممكنة من هذه المعركة الدامية المميتة مع أشباح المحيط الأطلسي، ويبدو أن المعجزة قد بدأت بالتحقق فعلًا، ظهرت ملامح التفاؤل على وجه أحمد حين بدأت السرعة بالتباطؤ فجأة وكان جميل في تلك الأثناء يراقب العدَّادات.. حين وصل ارتفاعهم إلى الألف التاسع عشر ارتفع أنف الطائرة فجأة وتراقصت أمعاء جميل في بطنه حتى كاد يلقي بأحشائه خارجًا.

تنهَّد أحمد، بينما استوت الطائرة في السماء وراحت ترتفع مجددًا شيئًا فشيئًا مائلة نحو اليسار. أسند أحمد رأسه على كرسيه وقال لاهثًا: «هل... هل نجحنا؟ هل نحن نطير مجددًا؟».

ألقى جميل بنظره نحو الأسفل ورأى في المحيط منظرًا تقشعر له أبدان الموتى، لقد كان انعكاس الطائرة في المياه مفزعًا، حيث تراءت له كتلة لهب عملاقة تلتهم ذيل الطائرة، وحين ألقى نظرة أخرى على شاشة عداد الارتفاع وجد المؤشر يتزايد رويدًا رويدًا من 19 ألف قدم نحو 20 ألفًا. منحه ذلك شعورًا ثمينًا بالراحة كان في أمسِّ الحاجة إليه، وبخاصة بعد السرعة الجنونية التي كانت تهوي بها الطائرة، لكن جميل كان يعي جيدًا أن هذه الراحة مؤقتة، وأن الأسوأ قادم إليهم، وهكذا تمتم بحزن وهو يسند رأسه على الكرسي بدوره متنهدًا: «أجل.

كما في الحلم تمامًا، ستستمر بالارتفاع بنا إلى نحو 24 ألف قدم ثم ستهوي مرة أخرى... وأخيرة».

تبادل النظرات مع أحمد، الذي تنهَّد بدوره وانبعث من فمه بخار البرد وهو يبتسم ابتسامة كاسرة رغم كل ذلك الأذى والألم وهو يشير برأسه بأن نعم، كأنه كان يدرك أن هذه هي النهاية.

- هذا البخار؟ ما قصته؟

قال جميل ذلك، فأجابه أحمد: «إنه ينبعث من فمك أنت أيضًا، أظن أن هذا البخار بسبب البرد، أليس كذلك؟».

- لكن الجو ليس باردًا إلى تلك الدرجة!

قال جميل ذلك مدهوشًا من كمية الراحة العجيبة التي يشعر بها في تلك الأثناء كأنه جالس في صالون منزله وليس في قمرة قيادة طائرة على أعتاب السقوط الأخير.

- من قال لك إنه بسبب برودة الجو؟ لعله بسبب برودة الجثث.

جحظت عينا جميل واستوعب الحقيقة السوداء المرعبة.. لقد ماتت ليلى بعد ارتطام الصاروخ الأول بذيل الطائرة، حيث كانت تستعد لجلب الوسادة لأمها من أجل النوم بعدما أخذت المضيفة طعام العشاء، وكان هو نائمًا أصلًا في تلك الأثناء وصُدم رأسه وتلقى في حلمه المكالمة الهاتفية من ليلى.. ولذلك حين رآها في الحلم رأى بخارًا ينبعث من فمها، بينما كان علي منصور لا يزال حيًّا حتى تلك اللحظة،

لكنه مات بعد الاصطدام الثاني للصاروخ الثاني، الذي شعر به هو في شكل هزة أرضية داخل الحلم لم تكن في الحقيقة إلا اهتزاز الطائرة.

لذلك بدأ البخار ينبعث من فم علي منصور بعد تلك الهزة المباشرة.

وصلت الطائرة إلى الارتفاع 22 ألف قدم.. في تلك اللحظة سمع جميل أحمد يتكلم: «إننا ميِّتان وجميع الركاب أيضًا مثلنا، هذه الطائرة لم تعد على قيد الحياة، لقد متنا في اللحظة التي انعطفت فيها نحو الأعلى، فقدنا أرواحنا بسبب قوة الضغط».

لكن لماذا.. كيف؟ إذا كنت أنا.. لكن.. تمتم جميل وهو ينظر إلى أحمد الذي توجَّه إليه بالسؤال: «لماذا أشعر أنني أعرفك منذ زمن بعيد؟».

- لأنك ستموت معي؟

قال جميل ذلك فردَّ عليه فورًا: «لقد رأيتك من قبل، أنت المسافر المجهول الذي حاولت ليلى أن توقظه في قاعة الانتظار. أليس كذلك؟».

استمر ذهول جميل الذي شعر أنه يفقد عقله وقال متعجبًا: «ليلى؟».

- أجل. لقد كنت أجلس بجانبها في الطائرة قبل أن أنام.

في تلك اللحظة بالذات بدأ جميل يشعر بأنه على حافة الجنون، شاشة الارتفاع تشير إلى 23 ألف قدم..

- ولكن أنا الذي...

رفع أحمد عينيه إلى السماء وابتسم ابتسامة المرتاح وغمغم: «ما صدقت لي صار قلت الحب ما بيتغير.. تاريكي كنتي ليل نهار عم تتسلي بعذابي..».

انتفض جميل من كرسيه بقوة وفزع وشعر بالرعشة تسري في كامل أنحاء جسمه كتيار كهربائي صادم وهو يصيح من هول الصدمة: «من أنت بحق خالق السماء؟!».

ووصلت الطائرة إلى ارتفاع 24 ألف قدم فتوقَّفت عن الطيران في لحظة قاتلة كأنها كرة وصلت إلى أقصى ارتفاع لها بعد قذفة قوية، سكتت الحياة في تلك اللحظة بين أذنيه، وبدت هذه الدنيا كلها في عينيه بحجم جناح بعوضة، نظر إليه أحمد نظرة ذات معنى. كرر عليه جميل السؤال: «من أنت؟».

مالت مقدمة الطائرة نحو الأسفل مرة أخرى كشيخ جليل حنى رأسه بعدما أنهكته ظروف الحياة..

أجابه أحمد وتلك كانت آخر كلمة بينهما: «أنا أنت!».

نظر جميل بعينين جاحظتين نحو الأسفل، ورفع يده نحو ساعته.. 20:41.. وشعر بقلبه ينخلع خلعًا من بين أضلاعه والطائرة تنحدر مرة أخرى بأقصى سرعة نحو الهلاك المحتوم، *جميل وأحمد هما الشخص نفسه؟* تبدَّت الحقائق أمام عينيه واضحة وضوح الشمس ورأى شريط الأحداث بين عينيه أخيرًا.. *هذا صحيح، لقد كنت أنا الذي*

نمت في المطار، ليلى أيقظتني وصعدت على متن الطائرة وجلست بالقرب منها، وحين سألتها عن الشاب الذي أيقظتْه أنكرت ساخرة وهمست في أذن أمها «هذا الشاب مجنون حتمًا»، لأنها في الواقع أيقظتني أنا وليس شابًّا آخر. لقد غلبني النعاس مرتين، مرة في قاعة الانتظار ومرة على متن الطائرة، وحين قمت وجدت نفسي جالسًا أمام ليلى، لم يكن هناك مسافر فاتته الطائرة. لم يكن هنالك مقعد شاغر. أجل. لقد كنت أنا.. لقد كنت أنا منذ البداية. لقد كنت أحلم حين رأيت تلك الفتاة الصغيرة الحزينة في مدرج الطائرات في مطار جون إف كيندي. كيف لم أفهم ذلك؟

عصر قلبه الأسى لأنه لم يفهم تلك الإشارة الخطيرة إلا متأخرًا، وها هي الطائرة الآن تهوي وتهوي، لم يستطع التحرك من مكانه، وتحطم زجاج النوافذ من شدة الضغط الهائل، فقد الإحساس بأي شيء من حوله، أصبح النظر مستحيلًا والتهمت النار أغلب أجزاء الطائرة. إنها تسقط بلا رحمة ولا شفقة ولا رجعة، ولا يزال جميل الذي أصبح الآن غبارًا في الهواء يعيش تلك اللحظات بإدراكه الذي تطاير كفقاعة صابون في الجو.

ثوانٍ قليلة.. سُمع صوت ارتطام جبَّار على مسافة مئة كيلومتر جنوب جزيرة نانتوكيت في قلب المحيط الأطلنطي الكبير، ولم يشعر جميل بعدها إلا بالمياه الباردة المالحة للأزرق الأطلسي تغمر عقله وقلبه وروحه إلى الأبد.

أنور

أطلق الفجر خيوطه الأولى على المكان، وتزايد الإرهاق والتعب عليه ولكنه لم يشعر إطلاقًا بأي رغبة في النوم، ولعل أصعب أنواع التعب هو ذلك الذي يصحبه الأرق، نظر إلى نسرين وهو يقول مدخنًا سيجارته العاشرة في تلك الجلسة: «هذا كل ما أخبرني به، فما رأيك؟».

كانت دقات قلبها تتزايد في تلك اللحظة، وتنحنحت لتحسِّن من صوتها. لم يتبقَّ في كوبها شيء من المشروب فقد شربته بالكامل، فابتلعت ريقها لكي تبلل حلقها الذي جف من هول ما هي فيه وقالت مفسِّرة وهي تكافح لتبدو أكثر ثباتًا: «كما أخبرتك يا أنور، إن مريضك تلقى صدمة عنيفة لم يتقبلها عقله، ولذلك في غياهب الغيبوبة التي كان فيها صنع عقله واقعًا آخر، واقعًا حاول فيه منع حدوث الكارثة لكنه...».

قاطعها أنور: «لكنه فشل في منع حدوثها، أليس كذلك؟ عجز عن ذلك حتى في أحلامه».

اغرورقت عيناها بالدموع، ولذلك نظرت إلى اتجاه الأمواج لكي لا ينتبه لها، وقالت بلهجة مهتزة كطائرة ترتعش في مطبات هوائية: «أجل يا أنور، عجز عن إنقاذ الطائرة كما يبدو».

- لكن لماذا؟ لماذا حدث ذلك كله؟ ما العلاقة بينه وبين هذه الطائرة؟

حبست شهقتها داخل صدرها، وقالت وهي تمعن النظر إلى الأمواج العاتية وهي تذوب في رمال الشاطئ متحولة إلى زبد: «هنا يأتي دور الذاكرة يا أنور، لقد استطعنا تحليل كل شيء سرده لنا وهو واضح وضوح الشمس لا يحتاج إلى تحليل...».

قاطعها أنور: «لماذا لم يستطع أحمد تبيُّن ملامح جميل في المطار؟».

- لأن الواحد منا لا يستطيع رؤية نفسه في الحلم يا أنور، ألم تلاحظ أنك لو نظرت إلى المرآة في الحلم فإنك على الأرجح لن ترى انعكاس صورتك عليها؟ إننا دائمًا نعيش في عالم الأحلام كشخص يمسك الكاميرا ويصوِّر الأحداث، لن نستطيع أبدًا رؤية ذلك الشخص الذي يحمل الكاميرا.

- ولمَ تمكن من رؤيته فيما بعد في قمرة القيادة؟

- وهل تمكن من رؤيته حقًّا؟ لقد كان يحدِّث شبحًا ميِّتًا يا أنور!

أطلق ابتسامة عابرة وقال مغمغمًا: «شبحه هو، أليس كذلك؟».

أومأت نسرين برأسها بأن بلى..

- حادث مميت، فقدان الذاكرة الكلي والجزئي.. الرهاب الاجتماعي والانفصام والاضطراب الانشقاقي.. لمَ هذا كله؟

- لأن المريض لم يتقبل الصدمة مثلما أخبرتك يا دكتور أنور، لقد هام على وجهه في غياهب الأحلام وأضغاثها وطلاسمها، ولكنه عبثًا يحاول...

- يحاول ماذا؟

قال ذلك في لحظة غضب فسكتت هي تمامًا، ثم همست في يقين: «أنت أخبرني».

شرد للحظات، وازدادت دقَّات قلب نسرين وهي تراه على وشك التحدث.

- دعينا من المرض والمرضى الآن، لقد تعبت من التفكير في أمره. ما رأيك أن نغني معًا؟

ابتسمت وهي تنظر إلى محفظة القيثارة في الأسفل: «لم تعزف لي منذ مدة طويلة».

ضحك وهو يحمل المحفظة وينتزع القيثارة منها، ضبَط أوتارها وتنحنح ليعدل خانته الصوتية وقال لها: «وهل تركنا هذا المريض نعزف يا نسرين؟ لقد سلب عقلي».

وراح يغنِّي..

((على فراقك محتار.. قلبي شاعل نار))

((أنا ناطر ليل نهار.. يا أم عيون الكذابي))

((حبيتك ونسيت الناس طمعتك فيِّي))

((حبيتك لكن يا خسارة ضحكتي عليِّي))

وبينما استمر في الغناء، لم تتمالك نسرين نفسها في تلك اللحظة وسقطت دمعتها.

((ما صدقت لي صار.. قلت الحب ما بيتغيَّر))

((تاريكي كنتي ليل نهار.. عم تتسلي بعذابي))

((طوِّل غيابك يا ليلى وطول عذابي.. كرمال عيونك يا ليلى لأنسى عتابي)).

وضع القيثارة.. وكانت عيناه أكثر لمعانًا هذه المرة وكأنه كان يكافح لكي يمنع نفسه من البكاء.

وهزَّ رأسه في لحظة إدراك مُرَّة: «كيف استطعت نسيان عينيها يا نسرين؟ كل هذه السنين».

قامت من مكانها وعانقته بقوة بينما نزلت الدمعة على خده وهو يقول بصوت مكسور: «لقد عجزت، حميتها من اليتم والوحدة والصراعات الأسرية. كنت طوال حياتي الحامي لها، لكني عجزت أن أمنع عنها الموت وتلك... تلك كانت أكبر هزائمي».

ثم أغمض عينيه ونزلت الدموع منهما بغزارة وهو يتنهَّد مطلقًا أبيات شعر قسمت السماء حزنًا فوق المحيط الأطلسي الذي اهتزت أمواجه العاتية وتزلزلت كمدًا عليه وعليها.

تذكرت ليلى والسنين الخواليَ..
ويوم لا نخشى على اللهو ناهيا..
فقال بصير القوم ألمحت كوكبا..
بدا في سواد الليل فردًا يمانيا..
فقلت له بل نار ليلى توقَّدت
بعليا تسامى ضوؤها فبدا ليا..
خليلي إلا تبكياني ألتمس..

خليلًا إذا أنزفت دمعي بكى ليا..
وإني لأستغشي وما بي نعسةٌ
لعل خيالًا منك يلقى خياليا..
فإني بليلى.. قد لقيتُ الدَّواهيا..
فإني بليلى.. قد لقيتُ الدَّواهيا..

***

مسحت نسرين على ظهره ثم قالت له في يقين: «أجل، ليس هنالك في مستشفى القاهرة ممرضة مخضرمة عزباء تُدعى سمية، إنها مجرد وهم من نسج خيالك، والمريض الذي أطلقت عليه الصحافة لقب «الملتحي النائم» الذي كان في غيبوبة طيلة هذه السنين كان هو الدكتور أنور توفيق نفسه، أي أنت».

وتذكر أنور أنه بالفعل لم يرَ أي مريض في الحقيقة يحكي له كل تلك الأحلام والرؤى، لقد رآها هو بنفسه حين كان في الغيبوبة، وقام يسردها للدكتورة نسرين أبو موسى صديقته أيام الثانوية التي كانت الشخص الوحيد الذي تذكره بعد الحادث.

وهكذا أضافت نسرين: «في الواحد والثلاثين من أكتوبر لعام 1999 تعرضت الطائرة المصرية للرحلة 990 لكارثة جوية انتهت بموت جميع ركابها من مسافرين وطاقم الرحلة، ومن بين المسافرين كانت...».

ابتلعت دمعتها إلى الداخل، وقال أنور مكملًا: «وكانت خطيبتي وحبيبة قلبي ليلى المحمَّدي وأمها إنجي خالتي من ضمن شهداء هذه الطائرة. لقد قضيت ثلاث سنوات أبحث في الأسباب الحقيقية لهذا الحادث، من العام 1999 إلى غاية تلك الليلة المشؤومة في الخامس عشر من آذار مارس 2002 حين طلع التقرير النهائي من الهيئة الوطنية لسلامة المسافرين في أمريكا، الذي حمَّل الطيار جميل البطوطي -رحمة الله عليه- المسؤولية وراء الحادث، فخرجت غاضبًا من البيت متوجهًا نحو المطار لكي أقابل المسؤولين المصريين وأطالبهم بالرد على هذا الافتراء الكاذب، وفي الطريق وفي تمام الساعة الثامنة وإحدى وأربعين دقيقة تعرضت لحادث مرور خطير إثر انزلاق سيارتي...».

هزَّت نسرين رأسها وهي تبتسم بسعادة لأنه استعاد ذاكرته أخيرًا وأردفت قائلةً: «وقد نُقِلت على جناح السرعة إلى مستشفى القاهرة حيث أنقذ الدكتور يسري حامد -رحمه الله- حياتك في عملية جراحية ماراثونية استطاع خلالها بأعجوبة إيقاف النزيف الداخلي الذي تعرضت له، لكنك لم تستعد وعيك إلا بعد عشرين عامًا كاملة، وكنت أنا أول من سألت عنها حين فتحت عينيك، وكأن عقلك الباطن كان يعرف أنني الوحيدة القادرة على مساعدتك».

هز رأسه بامتنان، ثم التفت حوله بدهشة وتساءل: «أيعقل أنك جئت معي من مصر إلى هنا إلى نانتوكيت؟».

رفعت حاجبيها وهزت كتفيها وقالت: «حين أخبرتني أن (مريضك) يجب أن نأخذه لجزيرة نانتوكيت لعله يستعيد ذاكرته هناك أدركت أنك على مشارف العودة إلينا يا أنور».

طأطأ رأسه بحزن وهو يقول: «متأكد أن الكثير من الأشياء قد تغيَّرت في هذه الفترة التي غبت فيها يا نسرين. مات البروفيسور يسري حامد صديقي القديم ومعلمي في مهنة الطب، وماتت أمي حزينة عليَّ، أليس كذلك؟».

وضعت يدها على كتفه وقالت مشجعة: «لقد كنت أهم مرضاه على الإطلاق، تفرغ لعلاجك أنت وحدك واعتبر نفسه مسؤولًا عنك حتى تستفيق من غيبوبتك، وتوفي إثر نوبة قلبية في العام 2010، حتى الممرضة سمية نوفل التي كانت من أكثر الممرضات عناية بك توفيت إثر صعقة كهربائية في المشفى في أثناء أداء واجبها إثر حادث أليم. وأما أمك فقد كانت تزورك في المشفى يوميًّا يا أنور طيلة فترة غيبوبتك حتى وافتها المنية، وحين أشرفت على الوفاة أوصتني أن أعتني بك وأن أحرص على سلامتك حين تقوم من الغيبوبة يومًا. إن استعادتك لذاكرتك اليوم هي أكبر سعادة لهم جميعًا».

تنهَّد أنور وأطلق زفرة حزينة ووقف وحيدًا قبالة مياه المحيط..

ما الذي فعلته أيها المحيط الأطلسي؟ ما الذي أخذته مني؟ كأنك لم تشبع بأن أخذت حبيبتي وخالتي، بل وحرمتني من أمي عشرين

عامًا كاملة. كم عليَّ أن أقدم لك من قرابين وتضحيات لتشبع وتدعني وشأني؟

التفت أنور إلى نسرين التي كانت تقف وراءه، وأشرقت الشمس في تلك الأثناء على سواحل نانتوكيت بشعاعها الذهبي البارز، وهتف في تلك اللحظة: «دعينا نعود إلى مصر يا نسرين. لنركب إليها في أقرب وقت ممكن».

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

يسعدنا انضمامكم إلى قناة
مكتبة ياسمين
معكم نكبر ونستمر بكل جديد

اضغط هنا .. اتبع اللينك

النهاية

دخل إلى بيته المهجور الذي لم يدخله طيلة الأعوام العشرين الماضية، راقب الجدران وتأملها، وتأمل كل ركن فيه. أخيرًا بعد سنوات الجنون والشياطين والأشباح يعود إلى البيت الذي كبر فيه وترعرع، وشعر بالانتماء، إلى حياته القديمة التي لم تعد ذات معنى بعد غياب النسوة الثلاث اللواتي كان يعيش معهن، أمه وخالته إنجي وابنتها ليلى.

دخل غرفته، كل شيء كان كما تركه، لقد حافظت أمه على المكان كما تركه ليلة الحادث، عشرات الصور والوثائق والمقالات الصحفية وأشرطة الفيديو الوثائقية حول الرحلة 990.. لا عجب *أني كنت أعرف كل تلك التفاصيل التقنية في الحلم، فقد حملت كل شيء معي من هنا على غياهب الغيبوبة، عقلي الباطن كان متخمًا بهذا الموضوع.*

كان متعَبًا، فالرحلة من نيويورك إلى القاهرة استغرقت عشر ساعات كاملة، فضلًا عن الرحلة من نانتوكيت إلى نيويورك.

وفي غمرة ذلك كله قرر أن يقوم ليأخذ حمَّامًا ساخنًا على أن يلتقي صديقته أبو موسى التي عزمته على العشاء.

على مكتبه القديم كان هنالك هاتف أرضي ما زال خطه مشغولًا، وعلى شاشته القديمة إشعار لرسالة صوتية تاريخ إرسالها 31 أكتوبر 1999.

ضغط الزر أقصى اليمين ليستمع إليها بينما راح يخلع ملابسه... وما هي إلا لحظات حتى التفت مذهولًا إلى الهاتف وهو يسمع صوته متحدثًا: «مرحبًا عزيزتي، لقد دخلت للتو إلى قاعة الانتظار بعدما أنهيت كل الإجراءات الجمركية ولم يستغرق ذلك مني الكثير من الوقت، وقد تمنى لي ضابط الشرطة سفرًا موفقًا، الجو لطيف هنا في نيويورك، موعد إقلاع الطائرة سيكون بعد نحو ساعة ونصف من الآن على الأكثر، سأواصل مطالعة الرواية التي جلبتها معي ريثما يحين الموعد، أو ربما قد أنام قليلًا، لقد هاتفتك مرارًا ولكنك لم تردِّي، يبدو لي أنك نائمة، أراك في المطار عند وصولنا بحول الله، اعتني بنفسك حبيبتي. مع السلامة».

مكتبة ياسمين

هذا ما سمعنا وهذا ما قلنا.